د. عبدالعزيز بندق

الخريف الأخير

قصص قصيرة

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

الخريف الأخير

قصص قصيرة

د. عبدالعزيز بندق

الخريف الأخير

قصص قصيرة

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

د. عبد العزيز بندق

الخريف الآخر - قصص قصيرة

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/450

رقم الإيداع الدولي: 8-960-25-9789959

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس **Email: almosgb@yahoo.com**

الدراجة النارية الحمراء

د. عبد العزيز بندق

مضى نحو رقعة الأرض الوحيدة المتبقية لديه والتي لا تزيد مساحتها على هكتار واحد.. كان يجرجر قدميه في صعوبة ملحوظة فوق الأرض الهشة الغنية بكثبان الرمال وهو ينصت إلى حفيف أطراف أشجار السرو الباسقة التي تبدو أوراقها وكأنها إبر مصوّبة نحو السماء.. المطر بدأ ينهمر بشكل متقطع ولكنه غزير.. الحقول الخالية من الأعشاب الخضراء تبعث صفيرًا حزينًا كان يتخلل النفوس في شيء من الرهبة.. لقد تأخر المطر في هذا العام بشكل جعل اليأس يتسرب إلى نفوس الأهالي ولكنه ها هو ذا ينهمر فجأة بهذا الشكل الوفير.. المطر سوف يجعل هذه الأرض المقفرة تتحول إلى مروج من الأعشاب

الخضراء كما أنه سوف يروي الأشجار المثمرة ويبعث الحيوية في كل شيء.. حجم قطرات المطر أخذ يزداد بشكل ملحوظ حتى بدأت تجلد رأسه وكتفيه.. رائحة التراب المبلل حديثًا أخذت تداعب أنفه وتبعث في نفسه حصيلة من الذكريات النادرة.. خياله بدأ يسبح ليعود به سنوات عديدة إلى الوراء عندما كان شابًا يافعًا يتمتع بثروة هائلة من الأراضي والأشجار المثمرة وكذلك المال الوفير وتذكر كيف انه كان يندفع في خضمّ نزوات الشباب العابرة ولم يكن حريصًا على ثروته التي بعثرها هنا وهناك في سنوات قليلة حتى لم يتبق منها إلا هذه الرقعة الصغيرة من الأرض الجرداء.. وإنه حتى عندما مكَّنه أحد أقاربه من الحصول على وظيفة لم يكن يحترم مواقيت العمل بل كان يتصف بالإهمال وعدم الاكتراث فكان كثير الغياب إلى جانب قلة الإنتاج ممّا دفع جهة العمل إلى طرده والاستغناء عن خدماته ليصبح بين ليلة وضحاها عاطلًا عن العمل يجوب شوارع المدينة حاملًا أعباءً من الأحزان والحسرات.. ضحك من نفسه طويلًا بعد أن استعاد شريط الماضي السعيد وهو يتفقد

أرضه الجرداء الخالية من أي نوع من الأشجار المثمرة وكان يزرع في خياله حفنة من الآمال الزاهية والتمنيات البرّاقة ثم قام من فوره عائدًا إلى بيته القابع في إحدى ضواحي المدينة.. استقبلته زوجته بابتسامة باردة وملامح مكفهرّة فقد صارت تعيش معه وأنفاسها تضيق يومًا بعد يوم منذ صار عاطلًا لا يملك مالًا، كان يقضي وقته دون أمل أو طموح لقد تبدلت حياتها فجأة من رخاء وبذخ إلى فاقة وتقتير.

تقدّم نحو زوجته قائلًا: ما زالت أمامنا فرصة سانحة لنبدأ حياة جديدة ونسترجع ماضينا بكل ما كان يحويه من سعادة وهناء وما عليك إلا أن تساعديني في الأمر الذي سوف أعرضه عليك.. وهنا قالت زوجته: وما هو هذا الأمر ونحن لم نعد نملك شيئًا؟.. سار متجهًا نحو الشرفة اليتيمة وزوجته تتبعه، جلس على الكرسي الخشبي وهو ينظر إلى الزقاق المكتظ بالمارة ثم قال لها: أنت تعلمين أني لم أعد أملك سيارة لأتنقل بواسطتها هنا وهناك، لذا أقترح عليك أن نقوم ببيع الأقراط والأساور التي تمتلكينها لاشتري درّاجة نارية يمكنني بواسطتها أن أتحرّك

وأتنقّل عبر الحدود إلى الدول المجاورة لممارسة بعض النشاطات التجارية التي سوف تعود علينا بالمنفعة.. قال ذلك وهو عاجز تمامًا عن وصف النشاط الذي سوف يقوم به إلا أن زوجته وافقت على هذا المطلب لأنها تعلم جيدًا مدى عناده السائد على بقية طبائعه الأخرى.

في اليوم التالي بعد أن تناول قهوة الصباح خرج من بيته حاملًا تلك الرزمة الصغيرة من الأقراط والأساور متجهًا إلى أقرب متجر من تلك المتاجر المتخصصة في شراء الذهب المستعمل وإعادة تصنيعه من جديد.. باع تلك الأقراط والأساور بثمن زهيد إلا أنه كان كافيًا لشراء دراجة نارية من تلك الدراجات التي ليست في حاجة إلى لوحات أمامية وخلفية لإثبات هويتها والتي كان يقوم بإنتاجها المصنع التابع للمدينة التي يقطنها.. وفي الحال أسرع نحو وكيل بيع تلك الدراجات واقتنى دراجة نارية حمراء اللون.. قضى ليلته يفكر في النشاط التجاري الذي سوف يعود عليه بالربح والمنفعة.

صباح اليوم التالي حمل على درّاجته كيسًا مملوءاً بالتراب ومضى نحو الحدود متجهًا إلى إحدى الدول المجاورة.. وعند البوابة الفاصلة بين الدولتين استوقفه رجال الجمارك وفتحوا الكيس الذي معه ليجدوه مملوءاً بالتراب.. ولمّا سألوه عن ذلك أجاب في شيء من اللباقة والمرح بأنه يقوم بإجراء مسح شامل لأرضه التي تحتوي على كميات من الرمال الزائدة على حاجته ولا أحد من الجيران قبل أن يضع شيئًا من ذلك التراب في أرضه ولذلك قرر أن ينقله إلى خارج الحدود.. ضحك رجال الجمارك من تلك التصرفات الرعناء وسمحوا له بالعبور ووصفوه بأنه رجل مختل عقليًا.

بعد ثلاثة أيام كان هذا الرجل نفسه يعبر الحدود مرة أخرى على دراجته النارية الحمراء يحمل كيسًا من التراب وقد أخبر رجال الجمارك بأنه سوف يستمر في عملية نقل الرمال إلى خارج الحدود حتى يتخلص من الكمية الزائدة التي أعاقت الأعمال الزراعية التي يجب أن يقوم بها.. ضحك منه رجال الجمارك هذه المرة أيضا وسمحوا له بالعبور.. وهكذا أخذت تتكرر هذه

العملية من وقت لآخر.. سخر رجال الجمارك من هذا الرجل واعتبروه أضحوكة تلك الأيام وصاروا يتندّرون بتصرفاته الغريبة وهو يمر أمامهم مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع حاملًا كيس الرمل حتى قاموا بإهماله وعدم الاكتراث لمروره أمامهم، بل كانوا يتهامسون قائلين: لقد جاء المجنون على دراجته النارية الحمراء.

في أحد الأيام خطرت على ذهن أحد رجال الجمارك فكرة جديدة بعد أن راوده الشك من تصرفات هذا الرجل ولم يخبر زملاءه عن تلك الفكرة إلا أنه عندما شاهده قادمًا على دراجته النارية الحمراء حاملًا كيس التراب استوقفه وصار يحدثه ثم أخرج سكينًا صغيرًا من جيبه دون أن يراه وخدش به مكانًا معينًا من هيكل تلك الدراجة ثم سمح له بالمرور.

بعد أيام قليلة قدم الرجل كعادته لكي يعبر الحدود استوقفه رجل الجمارك نفسه الذي أحدث الخدش في الدراجة قبل أيام ولكنه بعد معاينة الدراجة وقف جامدًا ذلك أنه لم يجد لذلك

الخدش أي اثر.. فأمر بالقبض عليه.. وبعد إجراء التحقيق اللازم معه اتضحت الحقيقة كاملة لا غبار عليها وذلك لأن الذي كان يقوم به هذا الرجل فعلًا ليس نقل التراب إلى خارج الحدود إنما هو تهريب الدرّاجات النارية وبيعها في أسواق البلدان المجاورة وكان في كل مرة يشتري درّاجة جديدة بنفس اللون ونفس الموديل حتى لا يشك فيه أحد من رجال الجمارك، وقد قام خلال سنة واحدة بتهريب وبيع أكثر من مائة دراجة نارية ليحصل على أرباح وفيرة، وكان في كل مرة يعود إلى وطنه من بوابة مختلفة نظرًا لتعدد البلدان المحيطة وعدم الحاجة إلى جواز سفر، وكان في مرّات قليلة لا يبيع الدراجة، إنما يعود بها من نفس بوابة الخروج لكي يبعد الشكوك عن نفسه.

الخريف الأخير

✍ د. عبد العزيز بندق

كانت ملامحها توحي ببراءة مشاعرها ووداعة قلبها، كما أنها تعكس طبيعة جمالها المتمثل في بياض بشرتها وسواد أهدابها وشعرها الطويل الذي يتدلى خلفها مسترخيًا، كلما أمعنت النظر في عينيها تدفعك رغبة شبابية لاكتشاف ما يدور في خلجات نفسها من أفراح وأحزان.

كان فصل الخريف هو المفضل عندها عن بقية فصول السنة ربما لأنه يفسح لها المجال لكي تعود إلى قريتها التي كان ترابها مسرحاً لخطواتها الأولى.. لقد غادرت عائلتها هذه القرية منذ سنوات عديدة وذلك بعد وفاة والدها مباشرة.. لقد انتقلت هي وأمها إلى المدينة المجاورة، فمنذ ذلك الحين لم يعد بوسعها

أن تشاهد قريتها إلا عند حلول فصل الخريف من كل عام فقد كانت تأتي إلى القرية مع والدتها لغرض جمع التمور من أشجار النخيل القليلة المملوكة للعائلة في هذه البقعة من الأرض ثم القيام بتجفيفها وحفظها في أوان خاصة ونقلها إلى المدينة لتخزينها لأيام الشتاء القادم.

لقد أقبل الخريف في هذه السنة أيضًا وها هو ذا شهر أكتوبر يبعث نسائمه المنعشة وينبئها برحيل فصل الصيف والخلاص من الرطوبة والحرارة المرتفعة وهي تشاهد الغيوم الزاحفة أمام رياح الشمال نحو سماء القرية المطلة على شاطئ البحر.

وصلت قبل يومين فقط بصحبة والدتها إلى هذه القرية وقد قصدتا هذه المرة بيت أسرة من أقارب الوالدة والتي تقيم هنا بصورة دائمة.. البيت متواضع جدًا فهو يتكون من غرفتين فقط تفتحان في جهة واحدة وتشتركان في جدار واحد يحيط بهما سياج من سعف النخيل يضم مطبخًا من الصفيح..

أما الأسرة المالكة له فهي تتكون من أم وابنها.. قالت

صاحبة البيت: يمكننا اقتسام البيت معًا لقضاء فصل الخريف سأخصص لكما غرفة واكتفي أنا وإبني بغرفة واحدة، ثم أضافت قائلة: يمكننا استعمال المطبخ معًا.

كان ابن صاحبة البيت في ريعان شبابه وهو يمتهن صيد السمك بواسطة المتفجرات وأيضًا كان يتمتع بمهارة فائقة في تسلق أشجار النخيل فهو يقوم في هذه الأوقات من السنة بتسلق النخيل وجمع التمور لأهالي القرية مقابل حصة زهيدة من تلك التمور، كان يضرب به المثل في هذا النشاط فهو لا يضاهيه أحد في تسلق النخيل..

كان يغتنم كل فرصة لكي يشرح لتلك الفتاة كيف كان لصياد سمك مثله لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن يصل إلى هذه المكانة من الشهرة، لقد كان يريد لنفسه الفخر والتفوّق دائمًا لكي يحظى بقلبها، إنه يريد أن يكون دائمًا موضع إعجاب من قبل تلك الفتاة التي لا يراها إلا في فصل الخريف وربما تمنى هذه المرة لو تكون أيام السنة كلها خريفًا، فقد بدأ يشعر بالبهجة

تضفي على حياته كلما تحدث إليها.

في إحدى الليالي كان الطقس هادئا وقد جلس الجميع في فناء البيت لتناول الشاي الأحمر والدردشة التي كانت تمضي بين مدّ وجزر لبحر الحياة الذي لا يكاد يهدأ حتى يفور من جديد.. قال الشاب مخاطباً والدته: إني أفكر في بناء غرفة ثالثة بالقرب من هذا البيت وسوف أجعل لها سياجا مستقلاً.. لقد فهمت والدته أن ابنها يريد أن يجر الجميع للحديث حول مستقبله وأنه يخطط للزواج.. فقالت الوالدة: هذا جيد ولكنه سوف يكون بعد نهاية فصل الخريف أو ربما في الصيف القادم.

صباح اليوم التالي اتجهت الفتاة إلى البئر الوحيدة في هذه الناحية من القرية حاملةً معها حوضاً لغسيل الملابس وشرعت في غسل ملابسها وملابس أمها عندما لحق بها الشاب وجلس على مقربة منها وأخذ يحدثها قائلا: ما رأيك لو تقيمين أنتِ ووالدتك هنا إقامة دائمة؟ قالت الفتاة: منذ سنوات خلت كان أبي وأمي يقيمان هنا ولكن وفاة والدي جعلت أمي تلتحق

بالمدينة ولا أعتقد أنه بوسعنا الإقامة هنا مرة أخرى.. كان يتأمل أناملها الرقيقة وهي تداعب تلك الملابس وتفركها بالماء والصابون داخل الحوض.. وينظر إلى شعرها الذي كان ينسدل وراء ظهرها كـليلٍ غاب عنه الهلال مبكراً.. ثم قام من فوره قائلاً: سوف أذهب إلى البحر لأصطاد السمك وسوف يكون غداؤنا دسماً هذا اليوم.

عاد بعد الظهيرة بصيد ثمين من الأسماك.. أفرغ كيس السمك في ساحة البيت وهو يقول مخاطباً الجميع: تعالوا أنظروا سوف نأكل السمك هذا اليوم مشوياً ومقلياً.. ثم بإمكاني أن أبيع بعضاً منه لشراء لوازم أخرى.. لكن الفتاة لم تنبس بكلمة واحدة، بل أعطته ظهرها وعادت إلى غرفتها.. دهش وحزن ثم أحس بالغيظ يتسرب إلى نفسه بعد أن لاحظ منها عدم الاكتراث لكنه لم ييأس.. ربما جمالها الأخّاذ أباح لها تلك التصرفات لكي تفوز بحظ من التدليل الذي لم تفز به في صغرها.

التقى بها خارج البيت مصادفة عندما خرجت لالتقاط

بعض عيدان الحطب أو ربما صنع بنفسه هذه المصادفة لكي يحدثها عن شعوره نحوها ولكن لسانه تعثر ولم يستطع أن يبوح بكلمة واحدة عندما لاحظ على تقاطيع وجهها عدم استعدادها لمثل هذا الحديث.

في اليوم التالي استيقظ مكفهر الوجه وخرج صوب البحر في رحلة صيد كعادته ولكن هذه المرة كان باله مشغولاً بالتفكير في الطريقة التي يستطيع بها امتلاك قلب هذه الفتاة وكيف يجعلها تحبه وتطمئن إليه.. جلس شاردًا على رمال الشاطئ منصتًا إلى خرير الأمواج وهي تداعب الرمال وربما ردد أغاني الصيادين من وقت لآخر، وقد حاول عبثاً أن يشغل نفسه بصيد السمك ولكن دون جدوى فقد كان باله مضطربا بشكل ربما جعله لا يرى بوضوح الأسماك وهي تتراقص تحت سطح الماء لقد قرر أن ينتظر حتى تميل الشمس نحو الغروب قبل أن يعود إلى البيت.. لابد أن يتحدث هذا المساء مع والدته بشأن هذه الفتاة ويطلب منها أن تخطبها له بغرض الزواج.. ولكن ماذا لو ترفضه.. يجب أن يضع حداً لهذا الوهج الملتهب الذي سكن

صدره.. لا بد أن يحسم الأمر فهو لم يعد باستطاعته الانتظار أكثر.. لابد أن يعرف شعورها الحقيقي نحوه.. ولكن الفتاة رفضت أن يكون هذا الشاب زوجاً لها وكانت عفوية وصريحة في ردها فقد قالت لوالدتها: إني أحترمه وأقدِّره لكنني لا أقبله زوجا لي لأني لا أحبه.

لقد وقع هذا الرد على قلب الشاب كالصاعقة وشعر بأن أحلامه أخذت تتقلص وأن الدنيا تضيق أمام عينيه فأحس بالغيظ يتعاظم بين جوانحه وبدأ يشعر برغبة ملحة للانتقام.

فصل الخريف بدأ يلتحف رداءه ويحمل رحاله للمغادرة جاراً وراءه أيامه الأخيرة.. الفتاة ووالدتها تحزمان أمتعتهما استعداداً للرحيل.. استيقظ الشاب باكراً في ذلك الصباح وأخذ كمية من البارود لإعداد عبوة الديناميت كما كان يفعل كل يوم واتخذ لنفسه موضعاً قريباً من باب الغرفة المخصصة للفتاة ووالدتها وقام بإعداد تلك العبوة بإتقان وربما انتهز فرصة خروج أم الفتاة من البيت وذهابها إلى البئر لإحضار الماء اللازم

لإعداد طعام الإفطار فأخذ يختلس النظر إلى الفتاة وهي تغط في نوم عميق.. لم يستطع أن يتخيل أن تكون هذه الفتاة الجميلة من نصيب رجل آخر وأخذت نار الغيرة تحرق قلبه غيظا فأشعل فتيل عبوة الديناميت ودحرجها نحو الفتاة ثم أطلق ساقيه للريح خارجا من البيت.. فإذا بانفجار عنيف يهز تلك الغرفة.. أشلاء الفتاة تتناثر هنا وهناك ويلتصق بعضها بجدران الغرفة التي تصدعت بشكل ملحوظ.. صوت ذلك الانفجار كان حاداً مدوياً مما جعل أهالي القرية يهرعون إلى المكان ليشاهدوا بأعينهم مسرح تلك الجريمة.

الغد الذي لن يأتي أبداً

✍ د. عبد العزيز بندق

مناديل تنبعث منها رائحة الدموع تلوّح للمسافرين من مشارف المطار.. المسافرون يصطفون أمام سلم الطائرة الجاثمة على أرضية المطار والتي سوف تتجه بعد قليل إلى باريس.. صوت محركاتها يعلو شيئاً فشيئاً ويملأ أجواء المطار هديراً ليبعث في نفوس المسافرين ذلك الشعور الذي فيه مزيج من الإشفاق وعدم القدرة على الثبات ومواجهة الأحداث.

أم خالد تضع يدها اليمنى على موضع القلب من صدرها وبيدها اليسرى تمسك منديلاً تجفف به الدموع المنحدرة على خديها وهي تهمس لزوجها: يؤلمني أن أرى وللمرة الثانية ابني الوحيد وهو يسافر إلى بلاد «الروم» وراء البحار.. زوجها

يقول مواسياً: هوّني عليك يا أم خالد لقد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل قريباً سوف يعود ابنك حاملاً شهادات عليا في مهنة الطب ليكون فخراً لنا ولبلادنا.

المسافرون يصعدون سلم الطائرة ومناديل المودعين تلوّح بوتيرة أسرع.. الطائرة تتحرك فوق أرضية المدرج مندفعة نحو الأمام وصوت محركاتها يزداد هديراً.. مقدمة الطائرة تعلو شيئاً فشيئاً لتغادر أرضية المطار ويخترق جسمها النحيل طبقات الهواء.. المودعون يتابعون بإشفاق عجلات الطائرة وهي تمتص داخل هيكلها، أما قلوبهم فربما اخترقت جدرانها لتحوم حول أحبائهم وهم جالسين على المقاعد.. خلال لحظات قليلة غابت الطائرة وذابت في الأفق.. المودعون يغادرون المطار وقلوبهم مملوءة بالعطف والتمنيات الطيبة وهم يتضرعون إلى الله بأن يجعل السلامة ترافق المسافرين وأن يحفظهم من جميع المخاطر.

في إحدى ليالي الخريف الدافئة يجلس أبو خالد مع زوجته في ساحة البيت الواقع في أحد الأرياف يحتسون الشاي الأحمر

ويتبادلون أطراف الحديث..أم خالد تقول: لقد أحزنني أني رأيت ابني خالد في الأيام الأخيرة قبل سفره وهو يتفقّد جميع أشجار المزرعة أثناء تجواله فيها فكان يقف طويلاً أمام كل شجرة زيتون وشجرة نخيل، وقد رأته في إحدى المرات وهو ينقش تاريخ ذلك اليوم على ساق شجرة الكمثرى كأنه يودع كل شجرة وكل بقعة من أرض المزرعة، حتى إنه قبل سفره بيوم واحد عندما ذهب ليودع ابنة عمه وعائلتها عاد إلينا شاحب الوجه ولم يحدثني عنها كعادته بل اكتفى بقوله: عائلة عمي بخير ويبلغون لكم السلام.. فإني أخاف أن يصيبه مكروه ولن أراه بعد الآن.

زوجها يقول: لا تتشاءمي كثيراً ولا تذهبي بعيداً بهذا الإحساس فإن شباب هذا الجيل يتصرفون بطريقة قد تبدو لنا نحن الكبار أنها غريبة ولا تتناسب مع تقاليدنا. إني لا أخفى عليك فقد قررت أن أبيع من هذه المزرعة مساحة تعادل نصفها ونحن نكتفي بالنصف الثاني وذلك لأجل بناء مسكن لخالد هنا على أرض الجزء المتبقي من المزرعة قرب منزلنا حتى يتمتع

بالحرية بعيدا عن ضوضاء المدينة فانه لا سبيل إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان حرا دون قيود.. إن خالد سوف ينهي دراسته ويعود إلينا بعد سنة كما هو مقرر، وعند عودته سوف يعقد قرانه على إبنة عمه لتصير الفرحة فرحتين. وسوف يمارس عمله يوميا في أحد مستشفيات المدينة فهو لا يبعد إلاّ كيلومترات قليلة، ثم من يدري ربما بعد فترة زمنية قصيرة سوف يعمل المسئولون في القطاع الصحي على بناء مستشفى هنا في هذه القرية التي عدد سكانها صار يزداد بصورة تستدعى بناء مرفق صحي كبير..

أما خالد فانه يمارس دراسته التخصصية في أحد مستشفيات باريس فهو يقوم يوميا بإجراء عمليات جراحية على القلب تحت إشراف أساتذة متمرسين وقد نجح خالد نجاحاً باهراً في مجال جراحة القلب حتى صار محل إعجاب من قبل أساتذته وصار يعتمد عليه فى أن يقوم بإجراء العمليات الجراحية دون إشراف من أحد ، حتى صار رئيساً لطاقم من طواقم جراحة القلب الذي خصص له جناحاً كاملاً.

في أحد الأيام بينما كان خالد جالساً في الجناح المخصص له بعد قيامه بعملية جراحية ناجحة على قلب أحد المسنين تم خلالها إجراء توسيع في أحد الشرايين التاجية بطريقة كانت فريدة في نوعها، إذا برئيسة الممرضات الخاصة بطاقمه تدخل عليه فجأة وتستأذنه للحديث معه ثم قالت له: أنت طبيب ناجح في مجال تخصصك لقد حزت هذا اليوم على إعجاب الجميع إنك تفوق في المهارة كثيراً من الاساتذه الذين كانوا يشرفون عليك في الماضي وينتظرك مستقبل زاهر وأنت شاب في مقتبل العمر، نحن في حاجة ماسة إلى أمثالك وإنك تهمني أنا بوجه الخصوص فلا يمكنني الاستغناء عنك، ونصيحتي لك أن تبقى معنا هنا في باريس فنحن تتوافر لدينا كل الإمكانات اللازمة والتقنيات المتقدمة التي سوف تجعل منك جراحاً ماهراً تتمتع بشهرة عالمية، وأنا أعدك بأني سوف أحصل لك على الجنسية الفرنسية خلال أيام قليلة.

هذه الصفحة الجديدة التي فتحت أمامه من قبل رئيسة الممرضات ربما كانت قد شرعت في خط كلماتها الأولى يوم

رافقته إلى المطار قبل سنة عندما سافر إلى بلاده لقضاء العطلة الصيفية هناك، يومها جلسا معاً في مقهى المطار قبل إقلاع الطائرة عندما قالت له: كم أتمنى أن أرافقك في هذه الرحلة. فردّ عليها مازحاً: ربما نقوم بإجراء عملية القلب المفتوح على متن الطائرة.

نظر إلى وجه رئيسة الممرضات ملياً كأنه يتأملها لأول مرة ثم قال لها: قبل سنة كنت تتمنين أن ترافقيني إلى بلادي، أما هذه المرة فإنك تريدين أن تبقيني هنا في بلادك فلا بد أن تختاري بين الأمرين.. وهنا قالت له وهي تبتسم: أنا أفضّل الأمر الثاني لأنه سوف يعود عليك بالشهرة والفائدة.

وهنا شعر خالد بأن الفتاة التي أمامه بدأت تدخل قلبه وتتسلل إليه رويداً رويداً ولكنه ردّ عليها في شيء من عزَّة النفس قائلاً: امنحيني أسبوعاً للتفكير في هذا الأمر.

أما والده فقد باع مساحة من المزرعة وشرع في بناء مسكن له في الجزء المتبقي منها وبالقرب من منزل العائلة وقد عمل

على أن يتم بناؤه على الطراز الحديث بشكل يناسب مؤهلات خالد ومكانته وقام بإعداد كل ما يلزم لمناسبة استقبال ابنه بعد أن يتخرج ويعود إلى أرض الوطن.

ذات أصيل ربيعي منعش جلست أم خالد مع زوجها في فناء المسكن الجديد بعد أن فرغا من ترتيب الأثاث داخل الغرف وتركيب الستائر حول النوافذ وهما يتبادلان أطراف الحديث قال زوجها: أبشرى يا أم خالد فلم يتبقّ على عودة ابنك إلا القليل.. غداً سوف يعود خالد حاملاً الشهادات العليا التي تجعله يساهم في تطوير مهنة الطب وجراحة القلب في بلاده التي هي في أمسّ الحاجة إلى مثل هذه التخصصات النادرة.

ولكن ذلك الغد لن يأتي أبداً لأن خالد إلى جانب الشهادات العليا فقد حصل على الجنسية الفرنسية وتزوج من رئيسة الممرضات وقرر أن يقضي بقية حياته هناك في باريس.

الأميرة العاشقة

د. عبد العزيز بندق

كان على الأميرة أن تتذكر ذلك الصباح البعيد الذي حملها فيه والدها إلى الشاطئ لكي تتعرّف على البحر لأول مرّة.. انبهرت يومها من هذا العملاق الجبّار الذي يرغو ثم تندفع مياهه تلقائيا نحو الشاطئ محدثة أصواتا تتفاوت بين الصخب والخرير.. أما أشجار حدائق القصر فكانت تجلب لها إحساسًا بالرهبة والحيرة وهي تنصت إليها ليلاً عندما تهزها الرياح في شيء من الخشونة فتصدر أصواتا تتفاوت بين الصفير والهدير.

أما الآن وقد كبرت فإنها صارت تدرك البحر وتعرفه جيدًا وهو يدفع بأمواجه الزاحفة لتغسل رمال الشاطئ وتبعث فيها النشاط. كما أنها صارت تعرف جيدًا أشجار حدائق القصر

عندما يغزوها الخريف فيسلب منها أوراقها وحين يرفرف فوقها الربيع بأجنحته المزركشة فتزهر وتبعث أريجها لكي يداعب الأنوف وهي تشاهد البستاني يقطف ورودًا وأزهارًا يشكل منها باقات يضعها في عدد من المزهريات التي تضفي على القصر جمالاً وبهاءً.

لقد عاد الهدوء إلى تلك المدينة المتربعة على الشاطئ اللؤلؤي بعد سنوات من مواجهة الأعداء وعاد الأهالي لممارسة حياتهم الطبيعية يتدافعون عبر الشوارع الضيقة يتقاسمون الأفراح والأحزان ولا شيء يشغل بالهم إلاّ تلك الأخبار التي تتسرب إلى خارج القصر بأن الأميرة مريضة وحالتها تسوء وتبعث على الذعر والحيرة.

الطبيب المعالج لم يفلح في تشخيص حالتها ولم ينجح في وصف الدواء المناسب.. الممرضة المكلفة من قبل الطبيب للإشراف عليها ومتابعة حالتها تقول: إن الأميرة بدأت تفقد شهيتها للأكل وأن وزنها صار يتناقص يوماً بعد يوم وبشرتها

تزداد شحوباً وحالتها بدأت تسوء وتقترب من الخطر.

ذات صباح خطرت على ذهن الطبيب فكرة جديدة حيث تقدم من والد الأميرة قائلا: إنني أرى في وجه الأميرة شيئاً مريباً فأنا أكاد أقتنع بأن الأدوية لن تعمل على شفائها، فقد بدأ يراودني إحساس عميق بأن رجلاً ما خطف قلب الأميرة وسلب عقلها بشكل حاسم فلابد لنا من التفكير في هذا الأمر بشكل جدي حتى نعمل على إنقاذها قبل فوات الأوان.. فكر الوالد مليا في هذا الخطب الكبير ثم اقترح على الطبيب أن يعمل على استدراج أفراد حاشيته من الرجال واحدًا بعد الآخر لزيارة الأميرة والتحدث معها فربما يتضح لنا ذلك الشخص الذي سلب قلبها حتى نقوم بتزويجها له ونحسم الأمر.

قام الطبيب باستدراج جميع رجال الحاشية فردًا فردًا لزيارة الأميرة والتحدث معها ولكن دون جدوى فقد لازمها الصمت وعدم الاكتراث.. عند المساء دار الحديث بين الطبيب ووالد الأميرة بأن جميع رجال البلاط قاموا بزيارتها ولم يتبق إلا البستاني..

وهنا قال الوالد مخاطبًا الطبيب: دع البستاني أيضًا يزورها.

في صباح اليوم التالي حضر البستاني إلى مضجع الأميرة وجلس بالقرب منها يحدثها ثم تناول مروحة مصنوعة من الريش كانت بجانبها وأخذ يحركها أمام وجهها وهنا تكلمت الأميرة ولأول مرة حيث قالت للبستاني: لا تهوّي فان الهواء.... ثم لفظت أنفاسها الأخيرة وفارقت الحياة دون أن تتمكن من إتمام تلك العبارة أو ذلك المثل أو الحكمة.

بعد ذلك بأيام قليلة أخذ البستاني يبحث عن الكلمات التي بإمكانها إتمام تلك العبارة وبدأ يضع الاحتمالات كالطفل الذي يلعب بمكعبات من الخشب الملون ليصنع منها شكلاً من الأشكال الهندسية ولكنه لم يفلح في الوصول إلى معرفة ما كانت الأميرة تريد قوله.

في أحد الأيام ركب البستاني فرسه وأخذ يجوب البوادي والقرى باحثاً بين القبائل العربية عن الإنسان الذي بإمكانه إتمام المقولة التي بدأتها الأميرة وأخذ يسأل عن العائلات

العربية العريقة التي تجيد نظم الشعر وصناعة الحكم والأمثال فهو يرى في اكتشاف عناصر تلك المقولة راحة لنفسه وإن كانت لا تجدي إنما فقط تجعله يصل إلى معرفة ما تخفيه الأميرة في قلبها من أسرار وإذا كانت تحبه فعلاً إلا أنها لم تستطع البوح بذلك نظرًا للفوارق الاجتماعية والبعد الطبقي الذي يفصل بينهما.

في أحد الأيام تم إرشاده إلى عائلة بدوية كانت تقطن إحدى الواحات وقد قيل له إنها تجيد هذا الفن من فنون اللغة ولا يضاهيها أحد في صناعة الأمثال واللعب بالكلمات.

عندما اقترب البستاني من بيت تلك العائلة خرجت إليه فتاة تسأله عن حاجته عندما بادرها بالسؤال عن والدها ، قالت له: إن والدي ذهب يسقي الماء بالماء.. ثم سألها عن أخيها ،فقالت: إن أخي ذهب يسابق الريح.

بينما هما يتحدثان وقد أصيب بالذهول من جراء تلك الإجابات المبهمة إذا بوالد الفتاة قادما على صهوة جواده فرحّب الوالد بالضيف ودعاه إلى الجلوس معه وتناول الشاي. جلس

البستاني ووالد الفتاة يتبادلان أطراف الحديث بينما قامت الفتاة بإحضار عيدان الحطب وأوقدت النار لإعداد الشاي.

قال البستاني يحدث الرجل: لقد سألت ابنتك سؤالين ولكن لم أفهم شيئا من الإجابات التي ذكرتها لي ، فقد سألتها عنك فذكرت أنك ذهبت تسقي الماء بالماء، وهنا قال الرجل: هذا صحيح فقد ذهبتُ أسقي البطيخ.. ثم قال البستاني: وعندما سألتها عن أخيها قالت إنه ذهب يسابق الريح.فقال الرجل: وهذا أيضا صحيح فقد ذهب يسابق صديقا له يملك جواداً يسمى الريح.

فأدرك البستاني مدى بلاغة تلك الإجابات وصار على يقين بأنه عثر على ضالته وأنه سوف يصل إلى معرفة ما يصبو إليه بفضل هذه الفتاة ، فتناول مروحة مصنوعة من سعف النخيل كانت بالقرب منه وأخذ يهوّي بها النار، فقالت الفتاة: لا تهوّي فإن الهواء يزيد النار اشتعالاً.

أدرك البستاني أن الأميرة كانت تحبه وأنها ربما أرادت اللعب بالكلمات بحيث تضع كلمة "الهوى" في مكان كلمة الهواء.

قصص قصيرة

جــزاء الخيـانـة

د. عبد العزيز بندق

كانت أفكاره شاذة وغريبة بشكل ملحوظ ، زملاؤه وأقاربه ينعتونه بعدم التوازن..إنه شخص غريب الأطوار ويلفه الغموض فهو مضطرب المزاج سريع الغضب.. كان يتصرف على نحو فظ تجاه أفراد الكتيبة التي هو قائدها ، لا يحترم أحداً ولا يعطف على أحد، كان يحمِّلهم أعباء فوق طاقتهم كأن يجعلهم يزحفون على أرض مغطاة بالحصى أو يقفون في حالة استعداد لساعات طويلة ، كان يفعل ذلك دون أسباب تذكر إنما إرضاء لمزاجه المتقلب ورغبته في الانتقام.. ربما كان يعود إلى حياة الفاقة والبؤس التي يعيشها فان المرتب الذي يتقاضاه لا يكاد يكفي لحاجاته، حتى المسكن الذي يقيم فيه هو

ملك للآخرين ، كان يشعر كأن الدنيا بأسرها تتواطأ ضده.. إذن فلماذا لا يكون حازماً ويقرر عمل أي شيء يجعله يغيِّر من الواقع الذي يعيشه؟ لماذا لا يرفض هذا البؤس وينظر بعيدا إلى مستقبل أفضل؟. لماذا لا يخوض تجربة نادرة تجعله يحقق رغباته ويخرج من هذا الكابوس الذي لازمه منذ سنين؟. لماذا لا ينتهز فرصة العداوة التي تأصلت بين بلاده وهذه الدولة المجاورة التي حاولت مراراً وتكراراً غزو بلاده وهي مازالت تتربص للهجوم عليها واحتلالها وهو الضابط المرموق الذي كان قد صدّ محاولات عديدة من قبل الأعداء دون أن يحصد شيئا على المستوى الشخصي؟.

ذات مساء عاد إلى بيته بائساً حزيناً وقد صار شعوره السائد هو الإهمال وعدم الاكتراث بما يدور حوله.. أقلقه شعوره بالوحدة فأخذ يترنم بأغنية قديمة من أغاني الحرب كان يتردد صداها على جدران الغرفة الضيقة وقد جلس على بساط مهترئ وأطلق لخياله العنان.. لماذا لا يسكن بيتاً حديثاً أو تكون لديه مزرعة.. أشعل لفافة من التبغ، شعر بشيء من الراحة وهو

ينفث دخانها في أجواء الغرفة.. في غمرة الصمت القاتل من حوله أخذ ينسج حلة لمشروعه القادم.

صباح اليوم التالي استيقظ مكفهر الوجه وشرع فوراً في وضع اللبنات الأولى لتنفيذ مشروعه المدمر، فقد أسرع في تقديم طلب للحصول على إجازة كي يتفرغ من خلالها للسعي وراء أصحاب الشأن في الدولة المجاورة دون أن تلاحقه الشكوك والشبهات من قبل رؤسائه.. وفي إحدى الليالي تسلل عبر الحدود إلى الدولة المجاورة وطلب مقابلة أحد المقربين من رئيس البلاد الذي بدوره مهد له الطريق للقاء المرتقب.. وبعد يومين تم له ما أراد فقد تمكّن من مقابلة رئيس تلك الدولة ووضع الترتيبات المناسبة لتمكينه من غزو بلاده واحتلالها وبالتالي السيطرة على مقاليد الحكم وقد تعهّد لرئيس تلك الدولة بأن يمهد له الطريق بحيث يكون الدخول من الجهة التي يكون فيها هو نفسه قائد المعركة وبهذه الطريقة يكون في مقدور الجيوش الغازية أن تدخل البلاد دون أدنى مقاومة تذكر بحيث تزحف فورا نحو مؤسسات ومكاتب الدولة والتي يسهل دخولها

والسيطرة عليها نظرا لقلة الحراسات حولها وذلك بسبب تفرغ الجيش ورجال الأمن للمعارك التي سوف تدور رحاها على طول الحدود.

ربما شعر بشيء من الرضا بعد أن نسج هذه المؤامرة وقفل راجعاً إلي بلاده وهو يخفي في نفسه كرهاً لكل البشر من أبناء عشيرته وخياله يسبح بعيدا فوق أمواج الطوفان القادم الذي سوف يغمره بالسعادة ويغرق الأشرار.

ذات صباح أُعلنت حالة الطوارئ في بلاده وتناهى إلى الأسماع أن جيوش الدولة المجاورة أخذت تزحف نحو الحدود وأنها تقوم بالمناوشات التي من شأنها أن تشعل فتيل الحرب بين الدولتين.

دارت رحى المعارك على طول الحدود بين الدولتين وبدأ الصراع يحتدم بشكل جنوني وتناثرت جثث القتلى هنا وهناك من كلا الجانبين.. لا أحد يمضي إلى الحرب وهو يعرف مسبقاً اللحظة التي سيموت فيها ولكن المحاربين يمضون إلى ساحات القتال تغمرهم الإثارة الناجمة عن المجهول وربما يموتون فجأة

وهم يستبشرون بالمستقبل خيراً.. وكما تم الاتفاق عليه مسبقاً مع الضابط العميل الذي قرر أن يخون وطنه فقد تم استحداث ثغرة من نفس الجهة التي كان فيها هو نفسه قائداً للمعركة وبواسطة هذه الثغرة تم إدخال كتائب عديدة من القوات الغازية مجهزة بأسلحتها التقليدية.

ذات مساء رمادي مترع بهوائه البارد تمكنت القوات الغازية من حسم الأمر لصالحها فقد حاصرت جميع مؤسسات الدولة وقامت باحتلالها والتمركز داخلها، وقام جنود الاحتلال باعتقال كل من بداخلها وأذاقوهم ألوانًا منكرة من الأذى والتي كان أخفها السجن وأقساها الموت.

بعد أن استقرت الأمور وتحققت أحلام أولئك الرجال الذين يسعون وراء تحقيق رغباتهم وهم ينطلقون دائما للبحث عن المجهول قام رئيس الدولة الغازية الذي صار رئيساً للدولتين باستدعاء الضابط الذي قدم له يد المساعدة، فقد قام باستدعائه إلى قصر الرئاسة هناك في العاصمة الأم.

ذات صباح مفعم بقطرات الندى كان الضابط ينتعل حذاءً ثقيلاً في طريقه إلى قصر الرئاسة.. لقد حان الوقت لكي يبدد بعضاً من القلق الذي كان يساوره ويخرج من دائرة الفاقة والهوان، تقدم نحو القصر مطمئنا إلى نفسه مغتبطًا بالحياة بالرغم من ذلك الشك الذي كان يراوده دائما بأن هناك قوة غامضة تحاول أن تسد له الدروب أمام تحقيق رغباته.. اصطحبه أحد الخدم إلى مكتب رئيس الدولة الذي كان في انتظاره.. دخل مغتبطًا ومد يده لمصافحة الرئيس إلا أنه جمد في مكانه ويده ممدودة ذلك أن الرئيس امتنع عن مصافحته إنما قال له: في الوقت الذي أشكرك فيه على ما قدمته لنا من مساعدة مكّنتنا من احتلال بلادك بسهولة فإني أقدم لك مكافأة قيمة. ثم أشار إلى كيس من النقود كان ملقى على البلاط وأضاف قائلا: خذ ذلك الكيس المملوء بالنقود فإنه ثمن مساعدتك لنا.. أما يدي فإنها لن تصافح رجلاً خان وطنه.

وهكذا خرج الضابط حاملًا كيس النقود وهو يجر وراءه ذيول الخزي والعار.

هبوط اضطراري بدون عجلات

د. عبد العزيز بندق

«الرجاء ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين» صوت المضيفة يصدح عبر مكبرات الصوت داخل الطائرة التي كانت تستعد للهبوط في مطار «فيوميتشينو» وعلى متنها مائتان وستون راكبًا بالإضافة إلى طاقمها المكون من عشرة أشخاص.. لا أحد يستطيع أن ينكر ما قدمته الحضارة للبشرية في مجال النقل والمواصلات.. منذ زمن ليس بالبعيد كان الأقدمون يعبرون هذه البحار وهذه المحيطات على متن سفن شراعية وأخرى بخارية، وكانت رحلاتهم تستغرق أياما وشهورًا. أما الآن فقد تم اختصار الزمن إلى ساعات ودقائق بفضل هذه الطائرات التي تجوب الغلاف الجوي للكرة الأرضية.

المسافرون يربطون الأحزمة والمدخنون منهم يقومون بإطفاء السجائر التي كانوا قد أشعلوها قبل قليل.. جميع ركاب الطائرة يغمرهم ذلك الشعور الذي يعجز الإنسان عن وصفه فهو مزيج من الإشفاق وعدم القدرة على مواجهة الأحداث، ففي مثل هذه المواقف يظهر الإنسان على حقيقته ويدرك أنه ضئيل ضعيف لا قيمة له وأن أقل شيء بإمكانه أن يحطم هذه الطائرة ويقطع كل صلة بينه وبين الحياة.. مقدمة الطائرة أخذت تميل شيئاً فشيئاً نحو الأسفل والصمت التام كان يعم أجواء الطائرة..لم يشعر المسافرون بتلك الهزة المعهودة التي تصاحب خروج العجلات من مخبئها استعدادًا للهبوط. بل تغيّر فجأة اتجاه مقدمة الطائرة حيث بدأت تتجه نحو الأعلى وتشرع في الصعود من جديد مبتعدة عن سماء المطار.. أصوات خافتة تنبعث من جنبات الطائرة.. لقد بدأ المسافرون يتهامسون بأن الأمور لا تجري على ما يرام وأن خللاً ما أصاب الطائرة وأعاقها عن الهبوط.. إحدى المضيفات تخرج من قمرة الطائرة

وهي تعلن للمسافرين أنه ليس هناك ما يدعو للخوف والحيرة وأن الأمر لا يتعدى كون أفراد طاقم الطائرة لم يفلحوا في جعل العجلات تخرج من مكانها بالطريقة الآلية وسوف يحاولون فعل ذلك بالوسائل الميكانيكية وعلى الجميع التحلي بالصبر والهدوء وسوف تسير الأمور كما يأمل الجميع.. ولكن الدقائق تمر ثقيلة دون جدوى والطائرة أخذت تبتعد سالكة مسارها فوق البحر وهنا بدأ الشك يتسلل إلى نفوس الركاب وهم يسرّون في صدورهم ما كان ينتابهم من ذعر.

أما حقيقة الأمر فان الطاقم الفني عجز عن إخراج العجلات حتى بالوسائل الميكانيكية، وكان الاتصال مستمرًا بين طاقم الطائرة وبرج المراقبة لإيجاد حل لتلك المعضلة. إذ أنه لا وقت للإطالة فلا بد من أخذ قرار فوري لإنقاذ ركاب تلك الطائرة.. أحد مهندسي المطار يأمر بإخلاء أكبر مساحة ممكنة من أرض المطار وتغطية المدرجات بكميات كبيرة من الشحوم لكي ينزلق فوقها جسم الطائرة عند الهبوط الاضطراري بدون

عجلات.. وهكذا فقد أعلنت حالة الطوارئ في جميع أرجاء المطار وتم إخلاء عدد من المدرجات ونقل عدد من الطائرات الرابضة هناك إلى مطارات أخرى وتم على الفور إحضار أكبر عدد من براميل الشحوم وشرع عمال المطار في تفريغها وطرحها على أكبر مساحة ممكنة من أرض المطار بسمك متفاوت فكمية الشحوم يجب ألا يقل سمكها عن متر واحد في نقطة الهبوط على أن تقل تدريجياً في الاتجاهات الأخرى مع الأخذ في الاعتبار أن الطائرة معرضة للانحراف عن مسارها في أي اتجاه نظرًا لغياب العجلات.. وجاءت سيارات إطفاء الحرائق من كل صوب لتقف في جنبات المطار في حالة استعداد تام.. وقد تم إعطاء الأوامر لقائد الطائرة بأن يحتفظ بها محلقة في الجو حتى قرب نفاد كمية الوقود الموجودة بخزانها بحيث لا يتبقى في الخزان إلا الكمية اللازمة للهبوط حتى يقلل ذلك من نسبة الخطر من احتمال انفجار الطائرة بسبب الشرارة التي ربما تحدث نتيجة احتكاك هيكلها عند الارتطام بأرضية المطار.

أثناء ذلك كان أفراد طاقم الطائرة يبذلون كل ما في وسعهم محاولين إخراج العجلات بجميع الوسائل ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.. ركاب الطائرة صاروا على بيّنة من المعضلة التي حلّت بها. فهم يبتهلون لله العظيم لكي ينجيهم من هذا الخطر المحدق بهم.

مؤشر عداد الوقود في الطائرة ينحدر نحو اليسار ويقترب من الصفر.. إحدى المضيفات تدلي للركاب بالتعليمات اللازمة وتحثهم على التزام الهدوء.. قائد الطائرة يشرع في الهبوط الاضطراري بشكل أقرب إلى العمودي مع الاحتفاظ بمقدمة الطائرة قليلاً إلى الأعلى حتى يتجنب اصطدامها بأرضية المطار.. فني برج المراقبة يتابع عملية الهبوط ويدلي بالتعليمات أولا بأول.. الصمت الرهيب يعم الجميع.. الطائرة تقترب رويدًا رويدًا نحو الأرض ليحط جسمها على أرضية المطار وينزلق نحو الأمام بين الشحوم المتراكمة على سطح المدرج.. الفرامل الهوائية الموجودة بالجناحين تنحني نحو الأسفل لتقلل

بقدر الإمكان من سرعة الانزلاق.. عتلة التوجيه المتصلة بذيل الطائرة تبذل ما في وسعها لجعل هيكلها ينزلق بشكل مستقيم.. بالرغم من جميع تلك الاحتياطات فقد مالت الطائرة على جانبها الأيسر مما سبب اصطدام جناحها بالأرض وأدى إلى انكساره عند المحرك وانحراف الطائرة إلى اليسار ولكن لم يحدث أي حريق نظرًا لغياب الوقود.. رجال الإنقاذ يهرعون نحو الطائرة وقد تم فتح جميع أبوابها وإنزال جميع الركاب بطريقة سهلة ولم يصب أحد بأذى يذكر.

بين فكّي سمك القرش

✍ د. عبد العزيز بندق

الأصدقاء الثلاثة يسحبون القارب الآلي نحو الشاطئ بعد أن حمّلوه بكل ما يلزم من معدات الغوص من لباس واسطوانات الأكسجين اللازم للتنفس وكذلك وسائل الرؤية والتصوير تحت الماء.. طيور النورس تحلق بأجنحتها النظيفة البيضاء التي تبللها رطوبة خفيفة من جرّاء انقضاضها بين وقت وآخر على أسراب الأسماك الصغيرة التي كانت تلازم الشاطئ على بعد خطوات من اليابسة التي بدورها تلتحم مع البحر بواسطة كثبان من الرمال الناعمة الصفراء.. عدد من المصطافين يتقدمون نحو الشاطئ محملين باللوازم التي يحتاجون إليها لقضاء ذلك اليوم من عطلة نهاية الأسبوع على ذلك الشاطئ اللؤلؤي يتمتعون بمائه

الأزرق ورماله الناعمة، إنها نهاية فصل الصيف وبداية فصل الخريف وفي مثل هذه الأوقات من السنة تكون مياه البحر دافئة ومغرية للسباحة والاستحمام.. عدد من أشجار النخيل القريبة من الشاطئ كانت تعرض عراجينها المتدلية بفعل حمولتها من البلح الأصفر والأحمر والتي كانت تضفي على الساحل جمالاً وبهاء.. المصطافون يرفعون فوق التربة خياماً صغيرة بواسطة دعامات خشبية بحيث تكون واجهاتها نحو البحر، وآخرون يغرسون عدداً من المظلات داخل رمال الشاطئ ألوان زاهية من مايوهات السباحة، وظهور عارية تلمع تحت ضوء الشمس.. عدد من الصبيان يتقاذفون كرة القدم هنا وهناك لتسقط على الرمال حيناً وفي مياه البحر حيناً آخر وهم يتسابقون وراءها في بهجة وسرور.

الأصدقاء الثلاثة يدفعون قاربهم نحو المياه ثم يصعدون على متنه ويشرعون في رحلتهم اليومية نحو عرض البحر وهم يرددون ما حفظوه من أغاني البحارة الموغلة في القدم ويتبادلون أطراف الحديث على أمل أن تتحقق آمالهم ويجلسون على أكوام

من الذهب بعد أن يتخلصوا من ذلك الماضي التعيس المشحون بالبؤس والفاقه، ربما تكون الظروف مواتية ويحالفهم الحظ فيعثرون على كنز في أعماق هذا البحر يمكّنهم من تغيير مجرى حياتهم نحو الأفضل.. فهم الأصدقاء الثلاثة الذين لم يفلحوا في الدراسة والتحصيل العلمي ولم يتمكنوا من تحقيق رغباتهم في الحصول على وظيفة أو فرصة عمل.. لقد اقتنوا هذا القارب الصغير بعد جهد عضلي أخذ الكثير من أوقاتهم ومن أجسادهم على أمل أن يحصلوا بواسطته على ما يشبع جوعهم القديم للمال الذي سوف يحققون به حاجاتهم.

الشمس تسكب أشعتها الذهبية في ذلك اليم.. نسيم البحر يرسم خطوطاً متجعدة فوق سطحه المصقول.. مقدمة القارب تمخر صفحة الماء لتضفي جمالاً ونقاء وتدخل في النفوس شيئاً من البهجة والسرور.

البحر يزداد صفاء بارتفاع قرص الشمس نحو السماء لتسقط الأشعة عمودية وتتخلل طبقات المياه فتجعل الرؤية

تحت سطح الماء تزداد نقاء ووضوحاً.

الأصدقاء الثلاثة يوقفون قاربهم هناك في عرض البحر ليقتسموا المهام: قام اثنان بارتداء ملابس الغوص تحت الماء وتثبيت اسطوانات الأكسجين فوق ظهورهما وكذلك معدات التنفس والرؤية وحملا معهما آلات التصوير التي تمكّنهما من تصوير الأشياء الغريبة التي يشاهدنها تحت الماء وفي قاع البحر.. أما الصديق الثالث فان مهمته هي المكوث في القارب على سطح البحر في انتظار عودتهما.

غاص الاثنان نحو الأعماق وقد أخذتهما روعة تلك المشاهد التي كانت تتوالى من حولهما وهما يمخران عباب الماء بأجسادهما النحيلة ويحملان فوق ظهورهما اسطوانات الأكسجين التي كانا يستنشقان منها هواء الشهيق ثم ينفثان هواء الزفير عبر صمام خاص ليذوب في الماء أو يتصاعد نحو السطح على شكل فقاعات والتي ربما شاهدها الصديق الثالث القابع هناك في القارب فيعمل على متابعتها.

كانا ينظران خلال طبقات الماء الشفافة إلى الأحياء البحرية المختلفة وهي تبدو على شكل ممالك داخل الحقول المرجانية وإلى الأسماك المتفاوتة الأحجام وهي تتجول على شكل أسراب باحثة عن قوتها اليومي.

ربما كان كل منهما يهفو قلبه لأن يرى شيئاً جديداً أو أن يكتشف شيئاً غريباً في أعماق هذا البحر المترامي الأطراف فيقوم بتصويره ثم يبيع هذا الشريط إلى إحدى الفضائيات أو إلى وسائل الإعلام الأخرى فتكون له الصدارة في عرض شيء غريب لم يسبق لأحد أن صوّره أو عرضه من قبل.

بعد ساعة من البحث والتصوير تحت الماء صعدا نحو سطح البحر لأخذ قسط من الراحة وتناول وجبة خفيفة، وما أن لاحظ الصديق الثالث مكان انبثاقهما من السطح حتى أسرع نحوهما.

قام الجميع بالانتقال إلى مكان آخر أكثر بعداً في عرض البحر ثم تبادل أحد الغواصين المهام مع الصديق الثالث لكي ينزل هذه المرة للغوص تحت الماء ويقوم هو بمهمة الانتظار في

القارب فوق السطح.

نزل الاثنان إلى أعماق البحر وكل منهما يحمل في جعبته عبئاً من الرغبات الهادفة يتمنّى أن يحقق بعضها أو كلها فلا مجال للتردد عليهما أن يقوما فوراً بالبحث والتصوير.. المكان هذه المرة أكثر عمقاً من السابق كما أنه يبدو زاخراً ومكتظاً بأحياء مائية وأسماك. كما أنه يتميز بحقوله المرجانية الموغلة في القدم فقد تغير لون بعضها حتى صار قاتماً والبعض الآخر اتسعت فجواته وتداعت أركانه.. سفينة قديمة غرقت ربما منذ عصور بعيدة ما زال هيكلها جاثماً في قاع البحر وقد تغطى بالطحالب والنباتات البحرية.. السنوات تتشابه والبحر لم يتغيّر، هذا الجبّار العملاق الذي يبقى شاهداً عبر الأزمان، ربّما سفن طارق بن زياد عبرت من هنا ذات يوم متجه نحو الأندلس ولكنها لم تعد.

زائر لا أحد يرغب في لقائه يقتحم المكان دون سابق إنذار ولم يمنح فرصة للتفكير إنه سمك القرش الذي انبثق فجأة من جهة الشرق واتجه في سرعة البرق فاغراً فاه نحو أحد الغواصين

وقضم نصفه فاختلط الدم بالماء ثم التهم النصف الثاني أيضا، حدث ذلك بينما كان زميله يقوم بتصويره وهو يتفقّد هيكل السفينة الغارقة.. في تلك اللحظات لم يبق أمام الغواص الثاني إلاّ الصعود إلى أعلى بكل ما أوتي من خفّة ليلتحق بالقارب وينجو بجسده، ثم أخبر الصديق الثالث بأن صاحبهما صار في بطن سمك القرش.

كانت الشمس تنحدر نحو الغرب والصديقان الباقيان يوجّهان مقدمة القارب نحو الشاطئ وهما يحملان على عاتقهما أعباء من الحزن العميق وفي نفسيهما يقيناً لا ريب فيه بأنه لا أحد يستطيع أن يسابق الزمان ليعلم ما تخفيه له الأيام.

أحدث طريقة للاحتيال

✍ د. عبد العزيز بنرق

كان جديداً عليّ أن يستقبلني أستاذ الكيمياء الحيوية في مكتبه بصدر رحب في ذلك اليوم من شهر مارس، إنه الأستاذ المشرف على بحث التخرج الذي شرعت في إعداده منذ شهرين، هذا هو اللقاء الثاني معه بشأن هذا البحث. أما اللقاء الأول فكان منذ شهر تقريباً يومها لم ينصت إليَّ في صبر وأنا أشرح له بعض النقاط المهمة في مشروع البحث. بل أخذ الكراسة من يدي وتصفحها لمدة قصيرة ثم نظر إليَّ في شيء من اللامبالاة وهو يقول: إن أسلوبك في سرد المعلومات غير دقيق ثم إنك أكثرت من ذكر المراجع وأسماء العلماء، لذا تجب إعادة كتابة البحث بشكل جيد.

قبل أن أغادر قلت له: سوف أعمل ما في وسعي كي أستقي

المادة من مصادرها بشكل أفضل. من غرائب أستاذ هذه المادة أن اهتمامه كان ينصبَّ حول منهج سلوك الطالب أكثر مما يهتم بإمداد المعلومات بحجة أن المعلومات سوف تكتسب مع مرور الزمن أما منهج السلوك فيجب أن يتمتع به الطالب ويتقنه بشكل جيد.

أما هذه المرة فقد دعاني إلى الجلوس في مكتبه وأخذ ينصت إليَّ في صبر ورويَّة ويتابع حديثي وأنا أشرح له بعضاً من العناوين الفرعية التي تضمنها البحث الذي أنا بصدد إعداده وقد وافق على كل ما جاء فيه من عناوين وذكر لي أنه بإمكاني طباعته وتقديمه إلى إدارة الجامعة ثم مناقشته في اليوم المحدد.

غادرت مبنى الكيمياء الحيوية سالكاً ذلك الشارع الطويل المؤدي إلى مركز المدينة، وفي الطريق استرعى انتباهي إعلان بخط عريض مدون على لافته كبيرة مثبتة على واجهة إحدى العمارات التي تم بناؤها حديثاً فقد كتب على تلك اللافتة "أحدث طريقة لعلاج الصلع".

أخذت أصابعي تتحسس بشكل عفوي مقدمة رأسي

الذي بدأت فروته تفقد بعضاً من شعرها، ولكوني شاباً يافعاً أرغب في الاحتفاظ بمظهري بشكل أفضل فقد دفعني فضول شديد إلى دخول تلك العمارة والبحث عن الشقة التي بصددها هذا الإعلان.. وفي الدور الأول عثرت على ضالتي، فقد رأيت لافتة معدنية صغيرة مثبتة على باب إحدى الشقق وقد دوّنت عليها نفس العبارة.. استقبلتني السكرتيرة بكل حفاوة وترحيب وأجلستني في مكتبها وقد بادرتها دون مقدمات قائلاً: لقد استعملت في الماضي الكثير من تلك السوائل التي تباع في الصيدليات والتي تشيع الدعايات بأنها فعّالة لعلاج الصلع لكن دون جدوى، ربما العلم توصل أخيرا إلى علاج لهذه الآفة المستعصية.. جاءني جوابها فوراً وكأنها وضعت يدها على كنز ثمين: إن هذه أحدث شركة متخصصة في علاج الصلع بتقنية رفيعة المستوى وبطريقة ناجحة.

رافقتني في جولة قصيرة إلى داخل المختبر الخاص بتلك الشركة وهي تدلي بشرح واف بشأن طريقة العلاج قائلة: أول عمل سوف نقوم به هو أن نأخذ بعضاً من شعر رأسك لكي يقوم فني المختبر

بوضعه تحت المجهر ثم إجراء التحاليل اللازمة للتأكد من نوعية هذا الشعر والفئة التي ينتمي إليها وبعد ذلك يتم وصف العلاج وتحديد المدة التي سوف تتردد فيها على هذا المركز بمعدل مرة واحدة يومياً لأنه علينا الشروع في استعمال العلاج المطلوب حيث نقوم برش المستحضر على فروة الرأس وعمل التدليك اللازم.. وهنا سألتها: لماذا لا تبيعون لي الدواء المطلوب حتى أقوم باستعماله في البيت؟

أجابت أولاً لأن تركيبة الدواء يجب أن تبقى في غاية السرية، وثانياً لأن هذا الدواء يعمل على إنبات الشعر في أي جزء من الجسم يلامسه. لذا يجب أن نلبس قفازات ونستعمله بحذر شديد بحيث لا يلامس إلا مكان الصلع.

وهنا لم أستطع أن اكتم المزحة التي خطرت على بالي في تلك اللحظات فقلت لها: إذن فلو انسكب بعض من هذا الدواء على وجوهنا وأجسامنا فسوف نتحول إلى فصيلة القرود.

فقالت بعد ابتسامة عريضة: أجل هذا ما يخيفنا، ثم أضافت: والآن يجب أن تدفع لنا مبلغاً من المال مقدماً حيث يمكننا أن نبدأ

في الإجراءات فوراً.. ولكن عندما سألتها عن القيمة التي يجب أن أدفعها أصبت بالذهول حيث إن المبلغ الذي ذكرته لي يعادل خمسة أضعاف المنحة الشهرية التي كانت تدفع لي من أجل الدراسة، ولهذا فانه لم يكن أمامي إلا العدول عن فكرة العلاج والانسحاب.

شاءت المصادفة أن يتواجد مركز علاج الصلع هذا بالقرب من المقهى الذي كنت أحد رواده مما جعلني أراقب عن كثب مجريات الأحداث عند باب تلك العمارة، فقد كنت أرى يومياً عددًا من أولئك الرجال أصحاب البطون المتكرّشة والجيوب المنتفخة وهم يترددون على هذا المركز ورؤوسهم تلمع تحت ضوء الشمس على أمل أن تنبت فوق تلك الرؤوس ربما غابات من الشعر الكثيف يساعدهم على استرجاع ذكريات الشباب ويجعلهم ينظرون يومياً في وجوه المرايا في شيء من الرضا.

لم يمض وقت طويل حتى ذاع صيت تلك الشركة وصارت تعج بالزبائن وربما امتلأت خزائنها بالمال الذي يتم دفعه مقدماً من قبل المترددين وهم يتلقون العلاج يومياً ويتحسسون فروة

رؤوسهم على أمل أن يلاحظوا ربما انبثاق الشعر.. ولكن الشعر لم ينبثق من رأس أحد من أولئك الزبائن كما أنه لن ينبثق لأن الذي حدث فعلاً بعد ذلك فانه في صباح أحد الأيام شاهدنا عناصر الأمن وهم يطوقون باب العمارة التي تتواجد بها تلك الشركة ويقومون بمساءلة الزبائن الذين حضروا في ذلك الصباح ربما لاستكمال العلاج الذي تم وصفه لهم حيث إنه لم يعد أي أثر لموظفي تلك الشركة فقد غادروا الشقة ليلاً بعد أن أخذوا معهم كل ما جمعوه من تلك الأموال التي حصلوا عليها كدفعات مقدمة من أولئك الزبائن.

وقد علمنا فيما بعد أنها شركة محتالة كانت تعمل بترخيص مزوّر وأن جميع موظفيها كانوا يحملون أسماء مستعارة.. أما الزبائن فقد خسروا أموالهم ومازالت رؤوسهم صحاري قاحلة.. أستاذ الكيمياء الحيوية كان هو الآخر أحد ضحايا تلك الشركة المحتالة خسر ماله ولم تنبت في رأسه شعرة واحدة، واتضح أنها ليست أحدث طريقة لعلاج الصلع، إنما هي أحدث طريقة للاحتيال.

يوم سقوط الجسر

✍ د. عبد العزيز بندق

لم تكن تلك هي الرحلة الأولى التي تقوم بها الحافلة ذات اللون الكناري البديع. بل إنها كانت تقوم يومياً بعدد من الرحلات ذهاباً وإياباً على طول خط السير المخصص لها والذي يمتد بين مركز المدينة وإحدى ضواحيها التي تتمتع بمعالمها الأثرية الخلابة مما جعل معظم ركاب تلك الحافلة هم من السيّاح الأجانب بالإضافة إلى عدد قليل من أهالي البلاد الذين ينطلقون نحو المؤسسات التي كانوا يعملون بها.. الحافلة تتهادى في سيرها خلال الشوارع الرئيسة ذات المحلات التجارية المتميزة بمعروضاتها المتنوعة التي كانت تجذب عيون الناظرين من الأهالي ومن السيّاح الأجانب وهم يشاهدون

تلك الملابس المختلفة الألوان المعلَّقة خلف الزجاج والقمصان الحريرية المتدثرة بها تلك التماثيل الخاصة بعرض الأزياء.

كان يومًا من أيام الصيف الدافئة وكانت المدينة تعج بالزوَّار القادمين إليها من مختلف سواحل البحر المتوسط لأنها تتمتع بمناخها المتميز في مثل هذه الأوقات من السنة فهي تقع في جزيرة تتوسط البحر مما جعلها مقصدًا للسيّاح المحبين للبحر والمعالم الأثرية التي تمثل الحضارات المتعاقبة على تلك البلاد خلال العصور المتواترة.. فكثيرًا ما كان يلجأ أولئك السيّاح إلى مثل هذه المدن طلبًا للهو والاستمتاع بمظاهر الحياة.. رجال ونساء يفتحون عيونهم على دنيا أخرى وينظرون في بهجة وسرور إلى معالم المدينة فرحين بما يستمتعون به وما يستمتع به أطفالهم من اللهو والعبث البريء ، فالناس هناك لا يتكلفون كثيرًا في جميع الأمور ولكنهم ينغمسون في تلك الحياة المطمئنة الهادئة ويحرصون دائما على أن ينفعوا الآخرين بأي عمل يستطيعون القيام به.. إنهم يحبون كل جديد ويسعون إلى رؤية كل ما يبعث في نفوسهم الدهشة والاستغراب.

الحافلة تمضي في طريقها تجوب الشوارع وتتمايل عند المنعطفات الصاعدة حينًا والمنحدرة حينًا آخر.. أصوات خافتة تنبعث من الركاب الجالسين على المقاعد المصطفَـة في جنبات تلك الحافلة بطريقة هندسية متناسقة.. شاب على ما يبدو أنه من الشرق الأقصى يوجه حديثه إلى امرأة من أهل البلاد كانت على مقربة منه كان حديثه لا يخلو من الغزل والإعجاب لكنه بطريقة هزلية وقد ظهر على وجه تلك المرأة علامات الخجل الممزوجة بالغضب مما دفع امرأة أخرى متقدمة في السن أن تقدم النصيحة لذلك الشاب كيلا يحاول أن يتحدث مع النساء بتلك الطريقة وعليه أن يحترم التقاليد، وكانت تحدثه بصوت عالٍ لفت أسماع جميع من بالحافلة مما جعل الشاب يشعر بالإهانة وخيبة أمل فقد احمرَّ وجهه ونهض واقفاً هو وصديق له كان برفقته وطلبا من سائق الحافلة بأن يتوقف لأنهما يرغبان في النزول ومغادرة تلك الحافلة، ولكن السائق لم يذعن لطلبهما في بادئ الأمر، إنما كان يمضي في طريقه بسرعة هادئة كما يتطلب نظام المرور في هذه الشوارع وفي مثل تلك الأوقات من النهار حيث الشوارع

مكتظة بالمارة والسيارات.. ولكنَّ الشابين اتجها فورًا نحو السائق واقتربا منه وقد ألحّا عليه بالتوقف. إلا أن السائق قال لهما في هدوء تام: سوف أتوقف عندما ندرك المحطة القادمة والتي لا تبعد كثيراً، وأشار إلى جسر يتراءى على بعد بضعة أمتار وأضاف قائلا: إن المحطة القادمة تتواجد بعد ذلك الجسر بأمتار قليلة.. ولكن أحد الشابين تقدم نحو السائق وأمسك بيده التي كانت تدير مقود السيارة وهو يلح عليه بأن يوقف الحافلة.. غمرت تلك الحافلة موجة من الفوضى والارتباك مما جعل السائق يضطر للتوقف حتى لا يتسبب في حادث يؤدي ربما إلى إلحاق الضرر بالحافلة والأذى بالركّاب.. بعد شجار لم يدم طويلاً بين الشابين والسائق غادر الشابان الحافلة يحملان بين جوانحهما شعورًا بالمهانة وعدم الرضا.. عندما استعاد السائق شيئًا من هدوئه تحركت الحافلة من جديد ماضيةً في مسارها المعتاد وهي تقترب نحو الجسر شيئًا فشيئًا ولكنها عندما صارت تحت الجسر تمامًا انهار وسقط فوقها ليسحق تلك الحافلة ويقضي على ركابها جميعا بما فيهم السائق نفسه فقد ماتوا

جميعا ولم ينج منهم أحد.

ذُهل المارة الذين كانوا بالقرب من ذلك الجسر والذين شاهدوا المشاجرة التي حصلت بين الشابين وسائق الحافلة قبل قليل وتعجبوا لمشيئة الأقدار.. فلو أن الحافلة لم تتوقف لإنزال الشابين لكانت قد مرت تحت الجسر قبل أن يحين موعد انهياره ولنجا الجميع من الموت.. ولكن الأقدار شاءت أن ينزل الشابان كيلا يموتا مع الآخرين. وأيضًا شاءت بأن يتسبب الشابان في تعطيل الحافلة حتى تتأخر لبضع دقائق كي يتفق وقت مرورها تحت الجسر مع موعد انهياره فيسقط فوقها ويحيلها إلى ركام هي ومن بداخلها.

طاحونة القرية

✍ د. عبد العزيز بندق

ربّما كان الأوفر حظاً بين أصدقائه وأقاربه الذين ما زال بعضهم يتسكّع على شاطئ البحر لالتقاط ما تجود به أمواجه من سمكات انزلقت من مراكب الصيادين عند انتشال الشباك من اليم، والبعض الآخر مازال يتنقّل بين غابات النخيل لالتقاط التمور التي تساقطت بفعل رياح الشمال أو بسبب نقرات الطيور.. أما هو فقد تم اختياره مع ثلاثة من رجال القرية لإدارة الطاحونة الجديدة التي أقيمت منذ أيام قليلة وذلك عوضاً عن طاحونة "العم سعيد" التي كانت تعمل بواسطة بعير يجر تلك الرحى المتوسطة الحجم وهو يسير في مجال دائري وعلى فمه كمامة من نبات الحلفا وقد حجبت عيناه من كلا الجانبين

بواسطة رقائق من الخشب تجعل مجال الرؤيا عنده يقتصر على نطاق مساره.

لقد كان سكان تلك القرية يلجأون إلى طاحونة العم سعيد في مناسباتهم الاجتماعية عندما تتطلب الحاجة إلى كميات كبيرة من دقيق القمح أو الشعير وقد كانت عملية الطحن تستغرق ساعات طويلة ، أما الآن وبفضل الطاحونة الجديدة التي تعمل بوقود " الديزل " فقد تم اختصار الزمن إلى دقائق.

لقد تهافت سكان القرية على الطاحونة الجديدة يحملون على ظهور دوابهم أعباءً من اكياس القمح والشعير التي من شأنها أن تتحول في دقائق معدودة إلى مسحوق من الدقيق الناعم أو الخشن حسب ما تقتضيه الحاجة. فقد صار بالإمكان التحكم في درجة نعومة الدقيق بالإضافة إلى سرعة الإنجاز بفضل هذه الطاحونة التي تم تركيبها في أحد المباني الحديثة الذي من شأنه أن يصمد أمام الهدير الناتج عن هذه الآلة الضخمة التي تعمل بواسطة هذا السائل الذي تنبعث منه رائحة مميّزة وعندما يحترق

في جوفها يبعث فيها الحركة.

لقد انبهر سكان القرية وهم يشاهدون هذه الطاحونة العجيبة التي تعمل من تلقاء نفسها ، وكيف أن صندوقاً كبيراً من الفولاذ تم تركيبه بعناية فوق مكعب من الطوب والأسمنت بإمكانه أن يبعث هديراً يسمع من مسافات بعيدة وهو يقوم بإدارة وتحريك تلك الرحى الضخمة بواسطة "السَّيْر" العريض الذي يربطهما معاً لتقوم بدورها بسحق الحبوب وتحويلها في وقت قصير إلى مسحوق من الدقيق.

لا أحد يستطيع أن يجحد ما قدمته الحضارة للبشرية فمنذ زمن ليس بالبعيد كانت أمهاتنا تقضى ساعات طويلة خلف الرحى اليدوية المتربّعة على رقعة من جلد الغنم أو الماعز وهنّ يدرن تلك الرحى بيد واحدة، أما اليد الأخرى فإنها تقوم بحشو الحبوب في فوهة الرحى لينساب الدقيق بعد ذلك من الحواشي ويتكوم فوق رقعة الجلد.

العاملون الأربعة الذين يقومون بإدارة الطاحونة والإشراف

عليها يجهلون تماماً ما يدور داخل الصندوق الفولاذي الضخم فهم يقومون صباح كل يوم بإشعال فتيل من القماش مشبع بالكيروسين ثم يقرِّبونه نحو فوهة صغيرة تتوسط السطح العلوي لذلك الصندوق، ثم بواسطة عتلة من الحديد يتم إدخالها في ثقب يتصدر الصندوق يعملون على تشغيل هذا المحرّك حتى ينطلق منه هدير بوتيرة منتظمة.. وفي حالات نادرة كانوا يلجأون إلى سحب "السَّيْر" مراراً حتى يتم تشغيل ذلك الصندوق.

كان صاحبنا يتمتع بجسم باسل متناسق وعضلات قوية ونفس خشنة مما جعله يقوم بجميع المهام التي تتطلب قوة البدن فكان يصعد إلى أعلى نقطة في الطاحونة لكي يعمل على تفريغ أكياس الحبوب في القمع الكبير الذي يعلو فوهة الطاحونة ثم يرمي بالكيس الفارغ إلى زميله الذي بدوره يقوم بتثبيت فوهة الكيس مع فوهة الطاحونة التي يخرج منها مسحوق الدقيق ، وعندما تتم عملية تعبئة الكيس كان ينزل ويلتقطه لينقله ويضعه هناك في الركن المقابل فوق الألواح الخشبية المعدة لهذا الغرض.

كان دائماً يفتخر بجسمه الضخم وعضلاته القوية فكثيراً ما كان يقوم باستعراض عضلاته بأن يحمل كيساً ثقيلاً مملوءاً بالحبوب بيد واحدة ثم يصعد به في خفة متناهية الى أعلى ويقوم بتفريغه في ذلك القمع.. وعندما يمتلئ الكيس كان يقفز بخفة لانتشاله بيد واحدة ايضًا ثم يضعه فوق الألواح الخشبية.. وكان كثيراً ما يسخر من زملائه ويوجه لهم الكلمات اللاذعة لأنهم لا يستطيعون فعل ذلك.

إنه الرجل القوي الذي كان يتحدى الجميع حتى إنه في أحد الأيام أراد أن يتحدى محرّك الطاحونة حيث قال لزملائه: بإمكاني أن أعمل على إيقاف هذا الصندوق الفولاذي وأمنعه من الدوران وذلك بذراعيّ هاتين.. نصحه زملاؤه بألا يفعل ذلك نظراً لخطورة هذا الأمر.. ولكنّه أصرّ على ذلك وتقدّم نحو "السَّيْر" العريض نافشاً ريشة كالطاووس متحدّيا ذلك المحرّك الذي كان صوته يصم الآذان فقد تقدم نحوه وأمسك السَّيْر العريض بكلتا يديه محاولاً سحبه في الاتجاه المضاد لإيقاف المحرك ولكن دون جدوى فقد التهم السَّيْر ذراعيه ثم سحبه

وجعله يترنّح هنا وهناك بين بكرتي المنظومة.

تقدّم أحد زملائه وعمل على منع تدفق الوقود نحو المحرك حتى توقف تمامًا، ولكن بعد أن تحولت ذراعاه إلى أشلاء.. وقد تم نقله فيما بعد إلى مستوصف القرية ثم إلى المستشفى الوحيد في المدينة المجاورة حيث تم إسعافه، ليغادر المستشفى بعد أيام قليلة وهو يتجرّع الحسرات اللاذعة نادماً على تصرفاته الرعناء التي جعلته يقضي بقية حياته دون ذراعين.

الطّفل العنيد

د. عبد العزيز بندق

كان الطفل يلهو بمغناطيس مكعب الشكل ومجموعة من المسامير الحديدية.. يضع المسامير على قطعة من الخشب ثم يقرب نحوها المغناطيس.. كان يبتهج لحركة المسامير وهي تقترب تلقائيا نحو المغناطيس حتى تصطدم به وتلتصق بأطرافه.. لم يحاول أن يفسّر هذه الظاهرة لأنه لم يكن يعرف ذرة عنصر الحديد ولا عدد مداراتها فهو يجهل المجال المغناطيسي وقانون "جاوس".

كان ينظر بين وقت وآخر إلى حيث تجلس جدته على قطعة بالية من الحصير خلف نار يتصاعد دخانها في أرجاء البيت ويرتكز فوقها إناء لإعداد الشاي وُضع بعناية فوق ثلاثة قضبان من الحديد على شكل مثلث متساوي الأضلاع صنع خصيصا لهذا الغرض..

كان يشاهد فقاعات الشاي وهي تحاول الخروج من فوهة الإناء المكشوف حتى تضطر جدته بين وقت وآخر بألا تنفخ فيها لتعيدها إلى داخل الإناء.. كانت جدة الصبي تناديه من وقت لآخر ليحمل كوباً من الشاي إلى جده الملتف بعباءته في إحدى زوايا الكوخ.

كانت الشمس تسعى لإنهاء الربع الأول من رحلة ذلك اليوم من شهر يونيو عندما همهمت الجدة قائلةً: لقد نفد الشاي وكذلك السكر المتوافر لدينا وغداً صباحاً سنبقى بدون شاي.. قذف الصبي ذلك المغناطيس من يده ونهض واقفاً وهو يقول لجدته: سأذهب أنا إلى المدينة لإحضار الشاي والسكر.. خرجت أمه من غرفتها وهي تقول: أنت مازلت صغيرا وليس بإمكانك الذهاب بمفردك.. ولكن الصبي أصّر على ذلك بقوله: بإمكاني أن أذهب بمفردي فأنا أعرف دكان عمي "جمعه" معرفة جيدة إنه يقع عند مدخل المدينة ، سوف أذهب وأشتري منه ما أريد.

كان الطفل يحفل ويبتهج عند الذهاب إلى المدينة لأنها جعلت الدنيا تتسع أمام عينيه ، إنها صارت أوسع مما كان يظن فهي تمتد شرقاً

إلى أقصى المدينة أما من جهة الغرب فإن الدنيا مازالت محدودة وضيقة فهي تمتد إلى حيث يتدفق ذلك السيل الذي يراه بوضوح عندما تتعامد الشمس والذي يتحول إلى قطيع هائل من الغزلان تعدو كلها في اتجاه واحد، أمه تقول إنه "السّراب" الذي تحدثه الشمس في الأيام الحارة.. أجل إن الشمس أمر عجيب فهو لا يستطيع النظر إليها إنه يخافها كما قال له خاله يوماً.. أما عمه "عاشور" فكان يقول: إن الشمس عبارة عن صفيحة ساخنة من النحاس تنتقل عبر السماء من الشرق إلى الغرب وعندما تغوص هناك في أقصى الغرب تكون في انتظارها عربة تجرها أربعة خيولٍ فتحملها وتسير بها تحت الأرض طوال الليل حتى تصل بها إلى جهة الشرق فتقوم بإنزالها هناك ثم تعود تلك الخيول أدراجها نحو الغرب لانتظار الشمس هناك في رحلتها القادمة.

أم الصبي قالت مخاطبة ابنها: ليس بإمكانك الذهاب إلى المدينة في قميصك هذا المتسخ.. كانت تقول ذلك على أمل أن تجعله يغيِّر رأيه ويعدل عن رغبته تلك.. ولكن دون جدوى إذ قال لأمه: بإمكانك أن تغسليه وسوف يجف لأن الجو حار..

خلع قميصه ثم أخرج رداء أمه من الصندوق ولفه حول جسده كما كان يفعل دائما كلما غسلوا له ثوبه الوحيد.

جلسَ في ساحة البيت ملتفاً برداء أمه وهو ينظر إليها باهتمام وهي تقوم بتنظيف ثوبه الخشن الذي كثيرا ما كان يشبهه بألياف النخيل.. وأحيانا كان يتأمل جده الملتف بعباءة رمادية اللون بالية الأطراف ، كانت خيوط أطراف العباءة تتدلى واضحة على جبهته وعلى قبعته الحمراء التي اسودت أطرافها هي الأخرى من جراء تراكم العرق والغبار منذ عشرات الأيام.. وضعت الأم الثوب على حبل الغسيل المثبت أحد طرفيه في دعامة من دعامات الكوخ السعفي أما طرفه الآخر فهو مثبت في جذع نخلة قريبة.

ارتدى الطفل قميصه ثم تقدم نحو جده ببطء ووقف أمامه جامداً صامتاً فهو يتحاشى الحديث معه.. أخرج الجد كيساً صغيرا من جيبه وناوله بعضاً من النقود بعد أن ربطها في منديل من القماش قائلا: ضع المنديل في جيبك واحذر أن تفتحه قبل أن تصل إلى دكان عمك جمعه.. خرج الصبي تصحبه أمه تحثّه وتوصيه

بأن يأخذ معه عصا حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه إذا هاجمته الكلاب، تسمّرت عند باب المزرعة تتابع ابنها بنظراتها حتى اختفى تماماً خلف أشجار الرّتم وغابات النخيل.. سار متنقلاً بقدميه الحافيتين فوق الرمال الساخنة وتحت أشعة الشمس الحارقة وكان يلجأ بين وقت وآخر إلى ظل شجرة لتنعم قدماه بشيء من البرودة.. كانت تنتابه خواطر كثيرة: ماذا لو يمر رجل راكباً حماراً أشهب اللون ضخم الجسم ثم يعرض عليه الركوب معه.. ماذا لو يمر عمه عاشور صاحب اللحية البيضاء الكثيفة راكبا ناقته "العالية" ثم يحمله معه على متن تلك الناقة إلى المدينة.. ولكن ماذا لو تهاجمه الكلاب.. إنه يكره الكلاب ويخافها لقد سمع جدته أكثر من مرة وهي تعيد قصتها مع الكلب المسعور وكيف تسلل إلى بيتها ليلاً ثم عضّها في ذراعها وأنها مرضت كثيرا ولو لم "تسبّب" عند الشيخ ولم تتناول "القرص الأبيض" لسلمتها عضة الكلب تلك إلى ظلام القبر.. ماذا لو يعضه الكلب هو الآخر وماذا لو يكون الكلب مسعوراً، إنه سوف يمرض ولن يكون بإمكانه أن "يسبّب"

أو يتناول "القرص الأبيض" لأنه لا يملك المال اللاّزم للعلاج.. أجل سوف يمرض ويتقدم منه جده ويرش عليه قطرات من الماء من ذلك الإبريق لكي يموت في الحال ولا يطول به العذاب.

على بعد أمتار قليلة من الجانب الأيمن للطريق لاح له كلب كان يلتهم أشلاء شاة ميتةٍ.. ارتعد ثم انكمش كالقنفذ ثم أطلق ساقيه للريح منحرفاً عن الطريق الترابي مخترقاً غابات النخيل لكن دون جدوى فقد لحق به الكلب وهاجمه وأخذ يعضه ويمزق ثوبه الوحيد.. تعالى صراخه وهو يعدو صوب أقرب بيت عامر بالسكان. وكان الكلب يتبعه ويعضه في ساقيه ويديه ويمزق ما تبقى من ثوبه..خرجت فتاة على ما يبدو أنها من العائلة التي تملك ذلك الكلب وهرعت نحو الصبي تواسيه وتضمد جراحه.. أما الكلب فإنه تقدم نحو الفتاة منحني الرأس يهز ذيله كأنه يعتذر عما فعل.. لفّت الفتاة طرف ردائها حول عنق الكلب ريثما يبتعد الصبي.. انطلق كالسهم مبتعداً عن ذلك الحي راجعًا إلى بيته والدم ينزف من يديه وساقيه وخيوط قميصه الممزق تتدلى على ركبتيه.

ليلـة خسوف القمـر

د. عبد العزيز بندق

ربط حزمة الألواح الخشبية جيداً بواسطة حبال مصنوعة من نبات الحلفا ثم ثـبّت على جانبيها قطعتين من الالواح لاستعمالها كمجاديف وزحزح تلك الحزمة نحو البحر ثم امتطى ظهرها وأخذ يجدِّف بمحاذاة الشاطئ على بعد خطوات من اليابسة واضعاً نصب عينيه البلدة الصغيرة التي كانت أسوارها تلوح على بعد كيلو مترات قليلة.

لقد كان من عادته أن يستيقظ قبل شروق الشمس بقليل ثم يتجه نحو شاطئ البحر ويسلك طريقه هناك في اتجاه الشرق حيناً أو في إتجاه الغرب حيناً آخر وهو يقوم بجمع ما تجود به أمواج البحر من الواح خشبية والتي انفصلت ربما عن السفن

والقوارب التي تحطمت بسبب الحرب والتي مازالت هياكلها جاثمة في قاع البحر ثم يقوم ببيعها في سوق البلدة ويبتاع بثمنها حفنة من دقيق الذرة يقتات به ووالدته.

كان رجال البلدة الصغيرة المتربعة على شاطئ البحر ينخرطون أحياناً في البحث عن شظايا المعادن الرخيصة المدفونة تحت التربة ثم يقومون ببيعها في سوق البلدة لإعادة تشكيلها وأحياناً أخرى كانوا يتجهون نحو الشاطئ لالتقاط الألواح الخشبية لكي يتم بيعها لمخبز البلدة أو لبعض الأثرياء لاستعمالها كوقود ثم يبتاعون بثمنها شيئاً من الطعام الرخيص، فقد كان الغذاء نادراً خلال تلك السنين العجاف التي أعقبت الحرب.

كان يوماً من أيام الصيف الحارة وكان السرور بادياً على وجهه وهو يجدِّف ممتطياً حزمة الألواح الخشبية.. الرياح تبدو ساكنة تماماً والشمس تسكب أشعتها الذهبية خلال سطح البحر المصقول الذي كان يبدو وديعاً مسالماً.. حزمة الألواح الخشبية تمخر سطح الماء محدثة خريراً رقيقاً.

عند منتصف الطريق تماماً لاحظ تغيراً في سلوك الأحوال

الجوية حيث شاهد غباراً كثيفاً يجوب عنان السماء قادماً من جهة الجنوب، وسرعان ما اشتدت الرياح وأخذت الأتربة تتصاعد نحو السماء، فقد حملت رياح الجنوب هجوماً عاصفاً على الشاطئ مما جعل تيار الماء يجرف الحزمة الخشبية ويتجه بها نحو عرض البحر، أما صاحبنا فانه لم يكن يجيد السباحة بدرجة تسمح له بالتخلي عن تلك الحزمة. إنما ازداد تعلقاً بها وأخذ يجدِّف بكل ما أوتي من قوة محاولاً دفع الحزمة الخشبية نحو اليابسة ولكن دون جدوى. فقد باءت جميع محاولاته بالفشل وأخذت تلك الحزمة تبتعد شيئاً فشيئاً وتتجه نحو الشمال.. هرعت والدته نحو الشاطئ ولحق بها بعض أقاربها وتوزعوا هناك يتطلعون نحو عرض البحر حتى شاهدوه ممتطياً حزمة الألواح والرياح تدفعه نحو الشمال. ولم يكن بوسع أحد أن يقدِّم له يد المساعدة حيث إنه في تلك الأيام لم تكن هناك زوارق إنقاذ تسير بالديزل كما هو الحال في أيامنا هذه.

لقد صار واضحاً بأنه فقد السيطرة تماماً على حزمة الألواح التي تغلبت عليها رياح الجنوب وجرفها التيار وأخذت تبتعد

حتى ذابت في خط التقاء السماء بالبحر وغابت عن الأنظار ولم يعد يرى حوله إلا الماء الأزرق يترجرج ويبعث في نفسه الفزع والخوف وربما داهمه التعب والذعر وغمره اليأس القاتل فاستسلم لمصيره المحتوم.

لم تستطع الأم أن تصمد أمام هول الكارثة فأخذت تصرخ وتولول وتمزّق خدّيها بأظافرها وتنثر التراب فوق رأسها.. بذل أقاربها جهداً كبيراً في تلك الليلة لإبعادها عن الشاطئ وإعادتها إلى منزلها هناك داخل البلدة.

في الصباح الباكر انطلقت كالسهم وسلكت طريقها نحو شاطئ البحر وتسمَّرت هناك تولول ونظرها مثبت في الأفق البعيد عند النقطة التي غاب فيها ابنها عن الأنظار، ومن يومها صارت تسلخ يومياً ساعات طويلة على الشاطئ وهي تخاطب البحر وتستجديه أن يعيد لها ابنها.. لقد ذكر لها أحد العرَّافين يوماً أن ابنها مازال حيَّاً يرزق فقد قال لها: إن ابنك موجود في جزيرة نائية مقيم وسط كهف بين شجرتين وإنه سوف يعود

عندما يخرج القمر من محنته.. فقد ذكر لها أن القمر سوف يصاب بمحنة تلازمه لبعض الوقت ثم يخرج منها ، في تلك اللحظات سوف يخرج ابنها من البحر.. صارت تتردد على البحر كل يوم لكي تطعم أمواجه بعضاً من الأعشاب الجافة التي ربما تجلب لها الحظ وهي تقول: يا بحر خذ الحرمل واعطيني ابني.. يا بحر خذ الشبت واعطيني ابني.

نزلت يوماً إلى البحر تطعمه العسل وتسقيه اللبن.. وفي يوم آخر منحته أساورها الفضية.. فقد صارت على يقين بأنها أعطت للبحر كل ما تملك وهو بلا شك سوف يذعن لمطلبها ويعيد لها ابنها.

في إحدى الليالي المقمرة استيقظت الأم على أثر ضوضاء ناتجة عن ضربات بواسطة عُصي على براميل من الصفيح وأجسام معدنية أخرى مصحوبة بصراخ وأصوات صاخبة كانت تهز سماء البلدة ، ولما نظرت إلى السماء شاهدت أن نصف القمر يبدو محتجباً ، حينها قال أهالي البلدة: إن القمر دخل في محنة حقيقية فقد لفّه "مارد" في ردائه لكي يسرقه وعلينا أن نصرخ ونضرب

الطبول لكي يهرب السارق ويترك القمر.. لم تدم تلك الضوضاء طويلاً حتى بدأ القمر يخرج شيئاً فشيئاً من ذلك الرداء ويتخلص من المارد الذي ربما هرب مخترقاً أعماق الفضاء.. اذن فان القمر خرج من محنته وها هو ذا يضيء الدنيا بأسرها.

شرع الناس في العودة إلى منازلهم.. أمّا أم الفتى فقد اختفت فجأة ولم يعثر لها على أثر.. توزع أقاربها على طول شاطئ البلدة للبحث عنها ، كانت الرياح قوية والبحر مضطرب والأمواج الصاخبة كانت تسدد لكماتها نحو الساحل بلا هوادة.

ربما خدعتها عيناها كما خدعها قلبها فرأت خيال ابنها بين الأمواج.. لقد جهزت له كل شيء في البيت الصغير.. الفراش.. الوسادة.. إبريق الشاي.. لم تعد تطيق الانتظار أكثر.. فاندفعت نحوه لكي تستقبله.. لكي تسحبه إلى خارج اليَـم وتضمه إلى صدرها.

بعد شروق الشمس بقليل تم العثور على جثتها تتقاذفها الأمواج.. لقد منحت المسكينة نفسها للبحر كما منحت له أساورها قبل أيام.

يوم وُلد جدّي

✍ د. عبد العزيز بندق

عندما جدّة أبي ولدتْ جدّي يومها كنتُ صغيراً.. أعطتني أمي بيضة دجاجة لكي أبيعها واشتري بثمنها سكّيناً يقطعون به سرّة جدي.. انطلقتُ أعدو نحو سوق البلدة، ولكن في الطريق انزلقت تلك البيضة من يدي وسقطتْ على الأرض فانكسرت وخرج منها كتكوت انطلق من فوره هارباً فانطلقتُ وراءه محاولاً الإمساك به، أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً متجهاً ناحية البحر وأنا أجري خلفه بكل ما أوتيتُ من خفة.. عندما رأيته يركب عباب البحر سابحاً بمهارة فائقة نزعتُ رأسي وقلبي وتركتهما على الشاطئ بعد أن أوصيتُ كل منهما بحراسة الآخر ريثما أعود.. أخذتُ أسبح وراء الكتكوت وأطارده حتى قطعنا سبعة بحار،

عندما اجتزنا البحر السابع أمسكتُ به ، وهناك شاهدتُ شيئاً عجيباً وذلك أن الناس في هذه الناحية من الدنيا يركبون ظهور الكتاكيت ويحملون عليها أمتعتهم.. تقدم مني أحد سكان هذا البلد وسألني إن كنت أُريد أن أضع على ظهر الكتكوت " حويّة " أم " بردعة " فأجبته على الفور بأني أريد بردعة لأن كتكوتي لا يملك سناماً.. فناولني بردعة جميلة تليق بظهور الكتاكيت.. وفي الحال ربطتُ البردعة جيّداً على ظهر الكتكوت وأخذتُ أحمل عليه أمتعة أُولئك الناس الذين لا يملكون كتاكيت وأتقاضى أجرة مقابل ذلك في سبيل تأمين لقمة العيش.

لم أستطع أن أمكث طويلاً في تلك الأرض الغريبة ففي أحد الأيام ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد حملتُ ذلك الكتكوت ورجعت ادراجي نحو بلادي.. بعد أن اجتزت تلك البحار السبعة وجدتُ رأسي وقلبي في انتظاري فألصقت كل منهما في مكانه واتجهتُ نحو سوق البلدة وفي الطريق خاطبني الكتكوت قائلاً: أرجوك ألاّ تبيعني بأقل من خمسين ديناراً.. ذُهلتُ من هذه المفاجأة ثم قلتُ له: عجباً كيف أرى كتكوتاً يتكلم.. وهنا

قال لي: إن هذا الأمر ليس عجيباً لأنه سوف يأتي في آخر الزمان من يجعل حصاناً يتكلم ويسرد لفارسه جميع الإنجازات التي قام بها.. كما سوف يأتي من يجعل صاحب صورة في إطار معلقة على جدار غرفة سوف يجعله يخرج من ذلك الإطار ويترجّل على أرض الغرفة يخاطب الناس والدم الغزير ينزف من جسده.. وسوف يأتي في آخر الزمان أيضاً من يجعل جثة تتكلم عندما يقابلها رجل كان يغوص في أعماق نهر النيل متجهًا نحو الجنوب باحثًا عن فتاة كانت قد فُقدت على اليابسة قبل أيام قليلة، فإن هذا الرجل سوف يسأل الجثة عن مصير تلك الفتاة وأن هذه الجثة بدورها سوف تجيبه بكل ما تعرفه عنها.

ثم أضاف قائلاً: أمّا أنت فليس بإمكان أحد أن يضاهيك فيما ذهبت إليه فقد تفوّقتَ على الجميع بهذا السرد البديع.

شكرتُ الكتكوت على تلك المعلومات القيّمة ثم عرضته للبيع فاشتراه مني أحدهم بثمن زهيد إلاّ أنه كان كافياً لشراء سكين.. فرحتُ كثيراً بهذا الإنجاز العظيم واتجهتُ نحو بيت جدة أبي.. في الطريق استوقفني أحد المارّة وكان يحمل بطيخة

على كتفه وطلب مني أن أُعيره السكين لبعض الوقت حتى يقوم بشق تلك البطيخة إلاّ أنه عندما شرع في شقها غاص السكين داخلها واختفى، فكان يتعيّن عليّ أن أنزل في جوف البطيخة لأبحث عن السكين المفقود.. بعد أيام قليلة من البحث قابلتُ رجلاً غريباً داخل تلك البطيخة فسألني عن ضالتي.. ضحك مني كثيراً عندما أخبرته بأني أبحث عن سكين وقال لي: مسكين أنت أيها الطفل فأنا منذ ثلاثة أشهر أبحث عن بعير على ظهره هودج ولم أعثر عليه حتى هذه الساعة.

بعد زمن لم يدم طويلاً عثرتُ على السكين فحملته وخرجتُ من البطيخة.. واتجهتُ فوراً إلى بيت العائلة لأجد الجميع هناك في انتظاري.

تقدمتُ نحو أمي وناولتها السكين والتي بدورها ناولته للقابلة التي كانت تقف على بعد خطوات فقامت بقطع سرّة جدّي ثم رقص الجميع وغنّوا حتى غروب شمس ذلك اليوم الذي سوف يأتي بعد قرن من الزمان.

ليلة بين العناكب

✍ د. عبد العزيز بندق

الآمال الوردية هي وحدها التي كانت تزوره عند وسادة نومه ، فقد استقبلها هذه المرة بحفاوة وأخذ يزرع بذورها في ساحة الليل وهو يسرد الحكايات على مسامع خيوط الظلام التي كانت تتراقص أمام عينيه.. لقد عاد إلى بيته باكرًا هذا المساء لأنه لم يكن على وفاق مع موجات البرد التي اجتاحت هذه المدينة، فهو عانى الكثير في طفولته من لفحات البرد حتى خلّفت له السعال وضيق التنفس، تغطى بلحافه الصوفي الثقيل تاركاً وجهه خارج اللحاف آملا أن ينعم بنوم هادئ ولكن الذي حدث فعلا أنه أفاق فجأة على أثر لمسات غير محببة إلى نفسه كانت تداعب وجهه وأنفه وأذنيه، قام مذعوراً وأشعل

المصباح الكهربائي الذي كان يتدلى من السقف ، وهنا كانت الحيرة الكبرى بسبب ذلك المشهد الغريب الذي لم يألفه من قبل حيث شاهد عددًا كبيرًا من العناكب المختلفة الألوان والأحجام تتنقّل على سقف وجدران الغرفة وهي تتدلّى من السقف بواسطة خيوط رقيقة كانت تنسجها من لعابها اللزج حتى ترتطم بأرضية الغرفة ثم تعود فتتسلق الجدران من جديد كأنها تمارس أنماطًا من التمرينات الرياضية ربما استعدادًا للهجوم على كائنات أخرى.. أصيب بالذهول وعجز عقله عن متابعة هذا الحدث.. من أين جاءت هذه الكائنات؟ وكيف تسللت إلى غرفته في هذا الوقت من الليل بهذا العدد الكبير؟ فتح باب غرفته بحذر شديد وأخذ يتفقَّد باقي حجرات البيت ليشاهد أعدادًا هائلة من تلك العناكب تنتشر في جميع أنحاء البيت.. لاحظ أن بعض هذه العناكب كان ناعم الملمس هادئ الطبع أما بعضها الآخر فكان قبيحا شرسًا إلى حد الإزعاج ولكن جميعها كانت تبعث في نفسه القرف وفي جسده قشعريرة لا تطاق.

وقف في فناء البيت حائرا وهو ينظر إلى عدد منها وكانت

تتمتع بأجسام ضخمة أخذ ينظر إليها وهي تقترب منه في قفزات متتالية كأنها تتحداه وتريد به شرًّا.. بدأ يتراجع أمامها وقد أدرك أنه لا يجيد فنّ اللعب مع هذه الكائنات التي ربمّا تنتمي إلى تلك الفصائل السّامّة، لم يبق أمامه إلاّ الانسحاب والخروج من هذا البيت ليقضي ما تبقىّ من هذه الليلة في مكان آخر.

خرج من فوره ولم يحدد لنفسه وجهة بعينها، أخذ يذرع ذلك الشارع الكبير الذي تضيئه الأنوار الكهربائية المثبتة فوق أعمدة أقيمت بشكل متناسق على طول الطريق المزدوج وقد اصطفت السيارات على جانبيه.

الأضواء تنعكس بوضوح على الأسفلت وعلى حيطان العمارات والهدوء يسود المدينة ولا يوجد ما يلفت الأنظار.. استوقف رجلاً كان يتسكع في ذلك الشارع في تلك الساعة المتأخرة من الليل وسأله قائلا: هل شاهدت أسرابًا من العناكب تزحف على حيطان هذه العمارات قبل قليل؟ فأجابه الرجل قائلاً: لا بل شاهدت أسرابًا من أسماك المرجان وهي تمخر عباب الاسفلت.. عند ذلك أدرك بأنه يجب عليه الابتعاد فورًا

ومغادرة هذه الديار قبل أن يصاب بالجنون.

انطلق مسرعًا هائماً على وجهه لاهثاً من شدة الذعر وعلامات الاستفهام تحوم فوق رأسه والعرق يتصبب من جبينه رغم البرد القارس.. اكفهرّت السماء فجأة وتلبدت بالغيوم وقد غمر اللون الرمادي كل شيء، ثم عصفت الرياح وتناثرت قطرات المطر التي أخذت تجلد رأسه وكتفيه وهو يعدو خارجًا من تلك المدينة حتى وجد نفسه أخيراً وسط غابة متكاثفة الأشجار، نزع ما عليه من ثياب وأخذ يلِّوح بها أمام الرياح العاصفة وهو يترنّح هنا وهناك تحت المطر كأن وتيرة الزمن قذفت به في أعماق القرون الوسطى ليمارس العقاب الذاتي متطهراً من المعاصي التي ربّما اقترفها ذات يوم ثم أسند رأسه إلى جذع شجرة عتيقة وهو يروي على مسامع الغابة بعضًا من أحزانه..

أخذ يتحسس جسده العاري وهو يعود إلى رشده شيئاً فشيئاً ثم ارتدى ملابسه واستلقى على الرمال نافثاً أنفاسه الساخنة في صعوبة صارخة وهو يتمتم ببعض التمائم التي ورثها عن أجداده دون أن يدرك لها معنى.. لكي نفهم الدنيا يجب أن نصمت

قليلاً.. الموت ينتقل عبر القرون ويفترس الناس في صمت.. لابد أنه سوف يقابل الموت ذات يوم وسيكون بينهما حوار بلغة الصمت.. الغيوم بدأت تبتعد أمام رياح الشمال الباردة، أوراق أشجار الغابة صارت تتحدث في خفوت وهمس خيوط النور بدأت تتراءى له قادمة من الشرق وهي ترسم لساناً وردياً كان يرتفع رويداً رويداً نحو السماء الرمادية فيضيء الروابي وقمم أشجار السرو الباسقة ثم انبثقت الشمس من خط التقاء السماء بالأرض عند الأفق معلنة قدوم يوم جديد.. عند ذلك لملم ما تبقى من نفسه المحطّمة وانطلق راجعاً إلى المدينة حاملاً على عاتقه أعباء من أطواره الغريبة ونزواته العابرة وربّما استوقفه بعض الفضوليين يسألونه عن سبب تلطيخ وجهه بالطين وسر قميصه الممزق الذي يكشف عن صدره وكتفيه.. فتح باب بيته في شيء من الحذر ثم دخل غرفته فلم يشاهد أي أثر لتلك العناكب.. تنهّد بمرارة وأدرك أنه لم يعد بالإمكان إصلاح ما تهدّم من نفسه العنيدة وأن جميع النصائح التي قدمها له أفراد عائلته تساقطت كأوراق الخريف.

بين العلم والإيمان

✍ د. عبد العزيز بندق

عند ذلك المساء كانت بين أيدينا جمجمة بشرية، كنا نتفحص بعناية عظامها الملتحمة ببعضها بشكل متناسق، ونتأمل تلك الفجوات الصغيرة المحفورة بداخلها وكذلك القنوات الضيقة التي تسمح بمرور الخيوط العصبية الدقيقة المتجهة نحو الحواس المحيطة بالرأس والوجه، لقد كانت تفصلنا عن موعد الامتحان أسابيع قليلة فقط وكان يتعين علينا أن نقوم بدراسة مادة الـANATOMY وفهمها بشكل جيد حتى نتمكن من اجتياز الامتحان بدرجة عالية فهي تعتبر القاعدة الأساسية لبقية المواد الخاصة بالعلوم الطبية.. قلت لزميلي وأنا أتفحص تلك الجمجمة: انظر جيداً إلى هذه القناة الضيقة التي

تتجه نحو العين لقد كان يتخللها خيط عصبي نحيف التركيب ناعم الملمس فهو الذي يجعلنا نرى الأشياء من حولنا وعلى بعد كيلومترات عديدة أما إذا نظرنا نحو السماء فإننا نرى على بعد عشرات السنوات الضوئية أليس هذا أمراً عجيباً؟ فأجاب دون تردد: إنه أمر طبيعي وليس عجيباً.. قلت له: وهذه الجمجمة لقد كان صاحبها يوماً يتكلم ويتحرك ويرى مثلنا تماماً ولكن عندما غادرته الروح أصبحت هذه الجمجمة جماداً.. قال: تقصد عندما توقف القلب عن ضخ الدم الذي يحمل المواد الغذائية.. قلت له: لا شك أن الروح من أمر ربّي وهي الآن لابد أن تكون في مكان ما بالقرب منه.. قال صاحبي: لاشك أن الطبيعة هي المسئولة على كل هذا فأنا لا أؤمن بوجود الخالق.

قلت له: وهذا الكون الشاسع لاشك أنه مخلوق أيضاً فمن الذي أوجده؟ قال صاحبي: الكون ليس في حاجة إلى فهم إنه يجري في أعماقنا لأننا جزء منه ، ثم إن الكون موجود لأني أنا موجود وعندما أنتهي أنا ينتهي الكون أيضاً.. قلت له: دع عنك هذه الفلسفة الفارغة ، وإلا فسوف تلاقي ما حدث

لطالب الفلسفة الذي كان يحدِّث والده بينما هما يتناولان طعام الغداء وأمامهما دجاجة مشوية عندما قال الابن لأبيه: أنا يا أبي ادرس الفلسفة التي بإمكانها أن تفترض أن هذه الدجاجة هي عبارة عن دجاجتين.. وهنا قال الوالد: إذن فأنا سوف آكل هذه الدجاجة. أما أنت فبإمكانك أن تأكل الدجاجة المفترضة.

في اليوم التالي جلسنا حول نفس الطاولة وأمامنا نفس الكتاب وبين أيدينا عظام الفخدين والساقين عندما قلت لصاحبي: انظر إلى هذه النتوءات التي كانت تشكِّل المفاصل فإن الخالق أبدع في جعل وسائد غضروفية بينها فلولا تلك الوسائد ما كان باستطاعتنا أن نطيق الألم الناتج من احتكاك العظام ببعضها وما كان بإمكاننا أن نمشي خطوة واحدة.. هذه المرة لم ينبس بكلمة واحدة.

بعد يومين كنا نتناول موضوعاً أكثر عمقاً وأشد تعقيداً فقد كنا نقوم بدراسة نسيج عضلة القلب وما تحويه من حجرات وأوعية دموية ، لقد أنفقنا ساعات طويلة دون أن نتطرق إلى

أي حديث جانبي ، ولكن قبل المساء بقليل سألت زميلي: ألا ترى أنه في تركيب القلب إبداعاً مذهلاً إلى حد كبير، بمعنى أن خلايا نسيج القلب تختلف عن جميع بقية خلايا الجسم وقد جعلها الخالق تستجيب بشكل فوري لفرق الجهد الكهربائي الذي يحدث بين عنصري الصوديوم والبوتاسيوم بحيث ينقبض القلب وينبسط باستمرار لعشرات السنين ، ألا ترى أنه أمر عجيب أيضاً؟ وهنا قال صاحبي محاولاً إقناعي: ألا تدري أن هذا كله حدث نتيجة لتطور خلية واحدة تكونت مصادفة في قشرة الأرض منذ ملايين السنين؟ قلت له: تقصد نظرية دارون أليس كذلك؟

امتطينا نظرية دارون وسافرنا في الخيال: ماذا لو تنصهر جبال الثلوج المتواجدة في القطبين وتنساب المياه الناتجة عنها في محيطات وبحار العالم والتي بدورها سوف تغمر اليابسة ، لا شك أن ذلك سوف يتسبب في إغراق معظم سكان الأرض ولكن لابد أن تكتب النجاة لأولئك الأقوياء جداً والذين يجيدون السباحة بمهارة ، هؤلاء سوف يتعلقون بالأجسام التي

تستجيب لقانون الطفو بشكل جيّد.. ومع مرور الزمن سوف يتكاثرون ، وربما تتحور أطراف أحفادنا إلى زعانف وأنوفهم إلى خياشيم وسوف تسود حضارات جديدة تحت الماء ربما أرقى من حضاراتنا الحالية لأن العقل البشري يتطور نحو الأفضل.

خرجنا من رحلتنا الخيالية لنهبط مرة أخرى على أرض الواقع وننظر في الكتاب المفتوح أمامنا.. لا شيء يضيفه أكثر غرابة من تركيب قلب الجنين وهو في بطن أمه لأنه يستقبل الدم المحمّل بالأكسجين والمواد الغذائية من الأم مباشرة عن طريق المشيمة والذي يقوم بتوزيعه على جسمه فالدم هنا لا يذهب إلى رئتيه لأن جهازه التنفسي لا يعمل.. وفي لحظة الولادة وخلال ثوان قليلة ينفتح الشريان الرئوي للمولود ويبدأ القلب في العمل بشكل كامل. وهنا سألت صاحبي: أما زلت تنكر وجود الخالق؟ فأجاب: هذه الأمور التي تتحدث عنها وجدت طبيعياً في هذا الكون منذ الأزل وهي تتطور تبعاً للتغيرات التي تحدث في البيئة وسوف تزول عندما يزول الكون.

وهنا قلت لصاحبي: دع عنك هذا كله ، سألقي عليك سؤالاً واحداً ولا تجيبني عنه إلا بعد الامتحان ، عند ذلك سوف تكون قد منحت القدر الكافي من الوقت للتفكير بهدوء.. وأرجو أن تكون صادقاً معي في كل شيء.. قال لي: أعدك بذلك ، هات السؤال.

قلت له: لنفترض أنك سافرت إلى أمريكا عن طريق البحر بواسطة باخرة وهناك في عرض المحيط الأطلسي هبّت عاصفة هوجاء وأخذت الأمواج تركل الباخرة حتى أغرقتها تماماً أما أنت لكونك سباحاً ماهراً فقد قفزت إلى سطح المحيط وبقيت وحيداً فوق الماء ، الأرض من تحتك على عمق لا يقل عن ثمانية كيلومترات وتفصلك عن اليابسة في جميع الاتجاهات آلاف الكيلومترات وفرصة مرور أية باخرة بالقرب منك ربما تكون معدومة. هنا أريد منك أن تعيش بخيالك هذا الموقف وتجيبني بعد أيام عن سؤالي الذي يقول: بمن سوف تستنجد ولمن سوف تستغيث؟ أما الآن فدعنا نعيش مع هذه المجلدات التي أمامنا فلم يتبق عن موعد الامتحان إلا أسبوعاً واحداً.

كانت نتيجة الامتحان حسنة بالنسبة لنا نحن الاثنين فقد اجتزناه بنجاح وبدرجة ممتازة.

بعد أيام قليلة زارني زميلي وكانت تبدو على وجهه علامات الرضا والارتياح ثم بادرني بالقول دون مقدمات: لقد حاولت مراراً أن أعيش الموقف الذي ذكرته لي بكل حواسي متخيلاً نفسي أمضي نهاري سابحاً فوق مياه المحيط ارتعد من الخوف وأنا انظر إلى زعانف أسماك القرش تمخر سطح المياه ، وعند الليل يغمرني الظلام الحالك ليزيد من حدّة الخوف وأنا انتظر الموت في كل لحظة.. فأيقنت أني سوف استنجد بالذي خلقني وأستغيث للذي أوجدني.. وقد صرت مؤمناً بأن للوجود خالقاً يحميه ويدبر أمره.

حافة الدنيا

د. عبد العزيز بندق

في تلك الأيام لم تكن هناك ساعات لقياس الزمن ولكن لغة الكون توحي بأن وتيرة الزمن تسير بشكل يجعل أمور الدنيا تمضي بإيقاع متسارع فالشمس تنبثق يومياً من جهة الشرق ثم ترتفع حتى تبلغ قبة السماء وبعدها تبدأ في الانحدار نحو الغرب وتغوص في المجهول.. وأثناء هذه الرحلة اليومية تقوم بإضاءة الامتدادات الرملية والصخرية والسهول والمرتفعات، جميع سكان تلك البقاع يشاهدون هذا الحدث المتكرر في كثير من الذهول.. إن هذه الأمور في حاجة إلى تفسير فالثقافة في تلك الأيام كانت محدودة وربما معدومة، فالعلم لم يبدأ رحلته بعد كي ينير العقول بحصيلة من المعرفة.. بالرغم من أن قلوب البشر نادراً

ما كانت تتحدث عن أسرار الكون نظراً لانشغالهم بأمور الدنيا ومتطلبات الحياة إلاّ أن هناك فئة من الناس التي ربما تكون قد تميَّزت عن غيرها لأنها أشبعت حاجاتها حتى صارت تنظر خلال ذلك الفراغ المترامي الأطراف، تلك الفئة من الناس يصفونهم الآخرون بأنهم رجال البحث والمعرفة فهم يتناولون الأحاديث بعيداً عن حشود الناس الذين شغلتهم هموم الحياة عن أسرار الدنيا، أولئك الناس كانوا يطلقون عليهم شيوخ القبائل.

في إحدى جلساتهم البحثية أوضح أحد الشيوخ لزملائه أمراً كان غامضاً ولم يخطر على بال أحد من قبل حيث قال: لا بد أن الشمس عندما تغوص في أعماق الغرب تكون في انتظارها عربة يجرها أربعة خيول حيث تحملها وتسير بها تحت الأرض طوال الليل حتى تأتي بها جهة الشرق فتقوم بإنزالها هناك ثم تعود الخيول أدراجها نحو الغرب لانتظار الشمس هناك في رحلتها القادمة. ثم قال آخر: إذا كان الأمر هكذا فان حدود الدنيا لا بد أن تكون غير بعيدة وربما يكون بإمكاننا اكتشاف حافة الأرض في إحدى الجهتين شرقاً أو غرباً، قال آخر:

بإمكاننا السفر نحو الغرب والسير في الاتجاه نفسه الذي تسير فيه الشمس وربما نتمكن في أحد الأيام من الوصول إلى حيث تنتظرها العربة بخيولها الأربعة، قال شيخ آخر: بهذا العمل نستطيع أن ننير عقول الناس وسوف نصف لهم بعضاً من أسرار الكون وبالتالي سوف نتسلق قمة الشهرة ونجلس على أكوام من الرفاهية.. أجمع الشيوخ أنه ربما يستغرق الوصول إلى حافة الدنيا أربعين ليلة، كانت حسابات الزمن عندهم في تلك العصور بالليالي حيث إن الليل يمثل نهاية اليوم.. عدد من شيوخ القبائل تحمسوا لعملية السفر واكتشاف حدود الدنيا.

ذات صباح مفعم برائحة الربيع انطلق سبعة من شيوخ القبائل يحملون أمتعتهم وزادهم متجهين نحو الغرب.. ربما كانت أيامهم بلا أسماء إلا أنهم كانوا يتفاءلون في الانطلاق للسفر صباحاً.. كانوا يتطلعون أمامهم إلى امتدادات الأرض البعيدة المترامية الأطراف وهم ينظرون إلى نقاط انطباق السماء على الأرض عند الأفق البعيد ويتخيلون الأسرار والأعاجيب التي ربما تكون خلف ذلك الأفق.. كانت السحب الربيعية

البيضاء تحجب عنهم الشمس بين حين وآخر، أشجار الغابات كانت متكاثفة خلال تلك العصور والصحاري نادرة..

كان من الصعب ألا يفكروا فيما تركوا خلفهم من أمور تلك القبائل إلا أن هناك مفاجأة لم تخطر على بال أحد من الشيوخ السبعة حيث لاح لهم عبر الأفق ظل أسود كان يناطح السحاب، قال أحدهم: ربما تكون تلك هي حافة الدنيا، ساروا طوال اليوم وعيونهم شاخصة في ذلك الظل الأسود الذي أخذ ينبري لهم شيئاً فشيئاً حتى انحدرت وراءه شمس ذلك اليوم.. عند الصباح بدا كل شيء في غاية الوضوح إنه جبل شامخ يشق عنان السماء ويصعب تسلقه، فأخذوا من ناحيته الجنوبية وانطلقوا بمحاذاة قاعدته.

انطلق الشيوخ السبعة تاركين الجبل وراءهم.. مرت أيام عديدة وهم يجوبون الأرض، كانوا يحسبون الزمن بواسطة عقد يعقدونها في حبل طويل كانت كل عقدة تبيّن يوماً وليلة فكانوا كل صباح يقومون بإحداث عقدة جديدة في ذلك الحبل

الطويل..كانوا يسيرون عبر المنحدرات، كانت المياه الجوفية قريبة من السطح فكانوا يحفرون بئراً في كل مكان يستقرون فيه فعند المنحدرات كان لا يتطلب الحفر إلا مترا واحدًا للوصول إلى المياه الجوفية.

لم تكن الدنيا يومها في حاجة إلى جوازات سفر وتأشيرات، سكان الأرض كانوا قلة وتفصل بينهم مسافات شاسعة ربما تسير عاماً كاملا فلا تصادف في طريقك إنسانًا واحدًا.

بعد مسير دام ستين يومًا بالتمام والكمال لاح لهم عند الأفق جدار أبيض اللون كان يعكس أشعة الشمس القادمة من الشرق فهو يزداد لمعانًا كلما اقتربوا منه.

عند المساء كانوا يقفون تحت ذلك الجدار الأملس.. ناموا تلك الليلة وفي الصباح الباكر عند شروق الشمس استيقظ الشيوخ السبعة على أثر أصوات غريبة كانت تسمع من خلف الجدار وقد انتابهم الخوف الشديد من جرّاء هذه الأصوات الغريبة التي تشبه إلى حد كبير أصوات البشر ولكنهم لم يتمكنوا

من فهم عبارة واحدة منها..ثم أخذت تلك الأصوات تختفي رويدًا.. رويدًا.

كان الجدار شبيها بسور من الخرسانة المسلحة فهو أملس لا يمكن تسلقه.

قال أحد الشيوخ: علينا أن نقوم بجمع عدد من أغصان الأشجار وربطها ببعضها البعض بواسطة حبال لكي نصنع سلّماً خشبياً نتسلق بواسطته هذا الجدار لنشاهد ماذا يوجد وراءه، قال آخر: ربما بهذه الطريقة سوف نتمكن من مشاهدة العربة التي تجرها الخيول الأربعة وهي في انتظار الشمس.

وفي الحال شرع الشيوخ الأربعة في جمع الأغصان من الأشجار، وصناعة الحبال بواسطة نبات الحلفا، وهكذا بعد يومين صار السلّم الخشبي جاهزاً مستنداً على الجدار بشكل مائل، شرع أحد الشيوخ في تسلّق هذا السلّم بحذر شديد ولكن عند وصوله إلى أعلى الجدار اختفى وراءه تماماً ولم يعد، ثم بدأت تلك الأصوات الغريبة في الانبعاث بشكل أشد حدّة

مما كانت عليه في الأيام الماضية.. انتظر الستة الباقون حتى اختفت تلك الأصوات ثم تسلّق أحدهم ذلك السلّم وعندما وصل إلى قمة الجدار اختفى وراءه هو الآخر مع انبعاث تلك الأصوات الغريبة من جديد.

بعد ذلك قرر اثنان من الشيوخ أن يتسلّقا السلّم معاً وفي آنٍ واحد ولكن عندما وصلا إلى قمة الجدار اختفيا وراءه هما أيضاً ولم يعودا ثم بدأت تلك الأصوات في الانبعاث من جديد.

قال الأقدمون: لم يكن بوسع الثلاثة الباقين إلا العدول عن هذه المهمة والعودة من حيث أتوا دون تحقيق أي انجاز يذكر.

الفهرس

$5

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE